طفل القيامة

قصص فاضل الربيعي

دار العربية

طفل
القيامة

الغلاف : يوسف عبدلكي

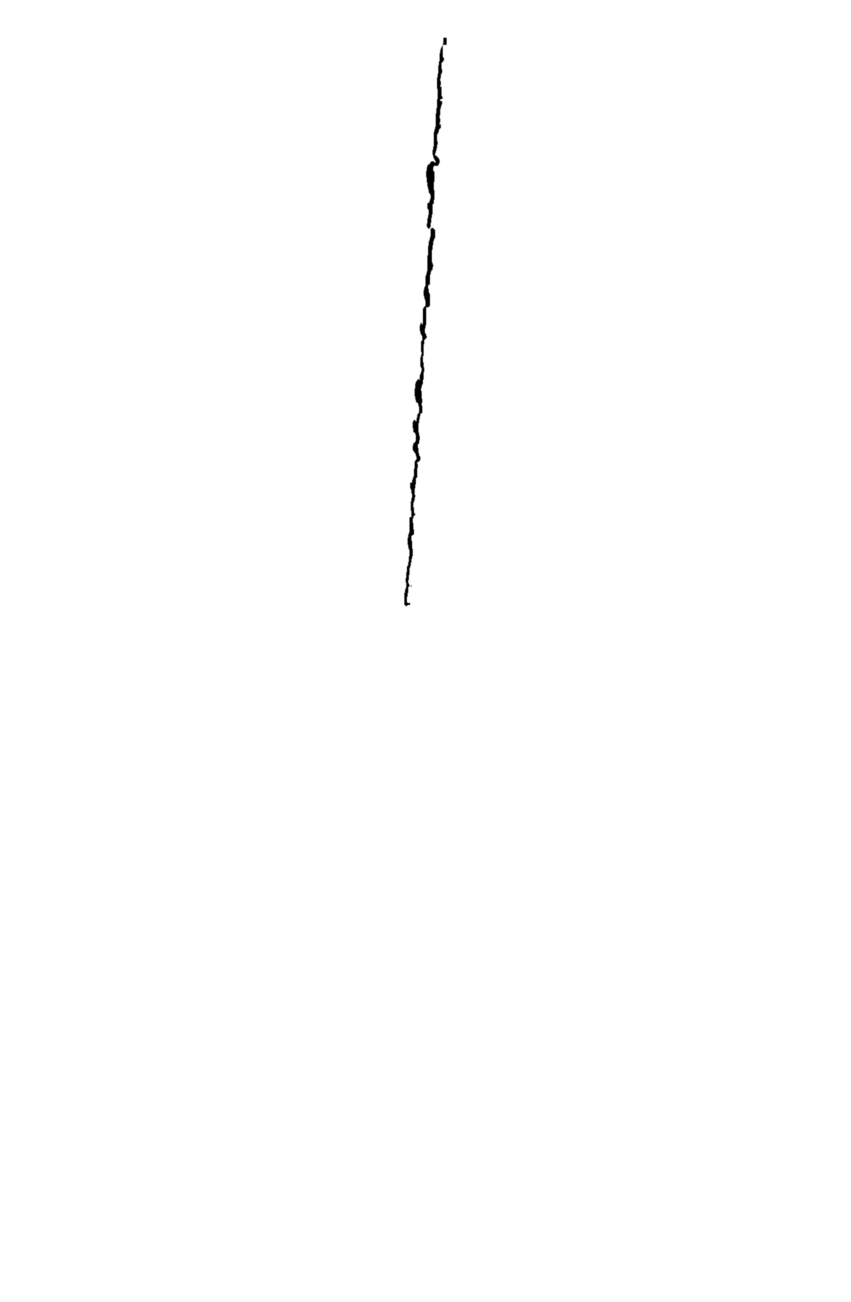
* الناشر : العربية للنشر والتوزيع
دمشق ص. ب ١٢٠٦٩

* الطبعة الأولى، ١٩٨٢



قصص فاضل الربيعي

بيت الأرملة



■ جاءوا في الصباح الباكر.

اصطفت سيارات التيوتا، والبيك آب، والناقلات الصغيرة، وانتشرت السلطة في المداخل، والمنافذ. وبدا انهم سيقتحمون البيوت بحثاً عن الفارين، ومن غرفتي الصغيرة، الضيقة، كنت أقرب إلى من يرى مدينته وهي تضج بكل هذه الأشياء المبهمة.

وقبيل الظهر، كنت استعد لمغادرة مدينتي، ربما نهائياً دون أمل بالعودة، مخلفاً دكاكينها التي تديرها العجائز والصبيات المرحات، واسواقها الصفيح، التي تحفل عادة بالنداءات المبحوحة عن اللحوم الطازجة واسماك النهر والخضراوات، حيث ربات البيوت بمرحهن المعتاد يماطلن البائعين، كي يشترين باسعار مخفضة.

سأهجر كل هذا الصراخ، الشجار، الركض، الضجيج، الغبار، وشاي العصر مع الكعك في البيت.

جاءوا في الصباح الباكر.

وكانوا ينتشرون في مواجهة الفناء الواسع من الابنية الواطئة المتجاورة، المتلاصقة، التي لشدة تجاورها تشعر المرء بالقرب الشديد من الآخرين، ذلك القرب الذي يوصف بالاحتكاك. فقد بنيت هذه البيوت التي ساهجرها دون أمل بالعودة، على هيأة متواليه عددية تكرر نفسها مرات كثيرة دون إنقطاع، أهذه هي البيوت التي يشعر المرء عندما يدخلها، إنما يدخل كل مرة ذات البيوت، والغرفات والطرقات، والوجوه، والستائر والشرفات، والباحات، ولكأنه عندما يخطىء في التعرف إلى بيت ما، يلقى شخصاً شبيهاً ايضاً؟

جاءوا في الصباح الباكر

ومن غرفتي، كنت أتأمل شبابيك المدينة، كما تلوح لي في هذا التأمل العجيب.. شبابيكها المطلة على ساحات مضاءة، لاتخلو من همهمات او تنهدات او ضحكات انثوية أو كركرة طفل، أو مرح فتاة.

لقد كان لكل ذلك معنىً ما، يوم جاءوا في الصباح الباكر وانتشروا في مداخل المدينة، ومخارجها، واتخذوا اماكنهم. خرجت من غرفتي إلى فناء البيت. فرأيت للمرة الاولى، بما يشبه الاكتشاف، ان ستائرها كانت وردية بلون الحائط من الداخل..، وبرغم الضوء الشاحب تلمست طريقي إلى خارج الغرفة، فرأيت نهاراً مشمساً كالعادة، غريباً وجميلاً، حيث عادت حركة الناس في الشارع وجاءتني الأصوات والنداءات

المبهمة، نداءات وصراخ وضجيج، الاسواق، والدكاكين، وبائعات اللبن، وصخب الصبية العائدين من مدارسهم بالكلمات والأناشيد البذيئة. جاءت اختي الارملة مسرعة:

ـ ستغادر البيت حالاً! يتوجب عليك ان تغادر. . .، لملم حوائجك، وسأضع الكتب والملابس في الكيس. . . اخشى ان يصطادوك. . اضافت وهي تمسح دموعها

فجمعت اشيائي الغريبة: أدوات الحلاقة والسكائر، وكيس العنب. . .، وكانت اختي تبكي، ربما شعرت بالندم ما كان يجب ان تكلم اخاها بمثل هذا العناد والقسوة، انها تخشى أن يجدوني خطأً، كان ذلك مفاجئاً لي، إذ لم يكن استعدادي كاملاً بعد لاختيار منزل آخر، أو مجرد التفكير في مأوى آخر.

عندما كنت أشق طريقي خائفاً، عبر الساحة، باتجاه الشارع الرئيسي، حيث احتشد المنظر وازدحم ديكور المدينة بالبنادق والباعة والمتسوقين والصبية والفتيات كانت الارملة اختي، تودعني بنظرات خائفة فزعة. كان وجهها البيضوي الشاحب قليلاً، الذي يظلله منديل الرأس ينبئني أنها الآن اقل خوفاً، وأكثر اطمئناناً، لكنها كانت متشحة بالسواد وكأنها تودعني إلى قبر، فأحسست بالحزن وهي تقف عند باب البيت الصغير الواطىء تسلمني حقيبتي.

تمنيت أن تسألني:

ـ إلى أين هذه المرة؟

لكنها لم تفعل، لانني أنا نفسي لم أكن أعرف بالضبط إلى أين سأتجه.

□ □

بعد الظهر كنت أمضي الوقت متجولاً في الأزقة الفرعية في العاصمة، بعدما غادرت مدينتي اشتريت شفرات حلاقة ومعجون اسنان من دكان صغير في (الطاطران) ومرقت امام مدرسة ابتدائية، ثم دلفت باتجاه بيت لنج في شارع الرشيد ربما كان منظري يبعث على الريبة، فقد كنت ادور في الأزقة البغدادية حاملاً حقيبتي وكيس النايلون المليء بكيس العنب ومعجون الاسنان وشفرات الحلاقة. لقد كان ائتلافاً فلكلورياً يدعو للرثاء

اين اذهب بعد ذلك؟

فكرت في عدة اصدقاء ومعارف، ولم انجح في اختيار اي منهم.

□ □

في ازقة العاصمة، وشوارعها، شاهدت مسرعاً، بعض الهائمين (مثلي) على وجوههم، مطاردين بلا بيوت، ومعتقلين خرجوا لتوهم يبحثون عن صديق يتوسلون إليه ويقسمون اغلظ الايمان، انهم (لم يقولوا كل شيء، بل بعض الشيء) فتيان وفتيات مرّوا من امامي دون ان يتعرفوا عليّ، او مررت قربهم دون ان اتعرف اليهم.

لقد تغيرت كثيراً سحناتنا في الجحيم.

المساء، كنت اتجول وحيداً، خائفاً، مطارداً، متعباً، وكانت ساقاي تؤلمانني جراء المشي..، والعاصمة ما تزال تضج بالزبائن الدائمين والباعة والسكارى والمطاردين، وفجأة تيقظت على امرٍ مفزع: انني حتى هذه اللحظة دون مأوى! فكيف ستكون الحال إذا جاء الليل؟ لقد كان لي مأوى، بيت صغير، زوجة وطفلين.. فأين ذهبت كل هذه الأشياء.. ولماذا أنا وحيد، ولماذا لا أستطيع العودة إلى زوجتي؟

حاولت أن أكون هادئاً، وواثقاً.

□ □

لا أدري كيف جاءتني الفكرة! لا وكيف خطرت في ذهني، لستُ اعرف ذلك، ولن استطيع أن اعرف، ولكن المؤكد انني عندما جاءت الفكرة، هكذا، تطنّ مثل نحلة، ثم تستقر بين يدي كحل وحيد كدت أقفز فرحاً! لقد حدث الأمر مع ذلك ببساطة متناهية، بساطة لاتوصف.

تذكرتُ السفر.. وتذكرت معه القطار!

قبل حلول الليل.

اتجهت نحو محطة القطار، كانت المحطة مزدحمة بالمسافرين، وقررت ان اقطع تذكرة للسفر، وقفت في طابور المنتظرين. أهو قطار البصرة أم الموصل؟ القطار الصاعد أم النازل؟ لم يكن ذلك يعنيني، لأن ما يهمني تماماً هو الحصول على

مأوى وفي القطار يستطيع المرء ان ينام الليل كله!

لقد كانت فكرة جنونية، ولكنها مع ذلك كانت غريبة وجميلة! ودون تردد وقفتُ مع المسافرين، تأملت هذا الحشد الغريب، جنود الثكنات البعيدة، العجائز، المرضى، المتنزهين بقمصانهم المتسخة وحقائبهم المثقوبة... وكنت اقف عند شباك التذاكر.

كنت بحاجة إلى النوم، والقطار هو مأواي الوحيد، غرفة نومي، زنزانتي، جنتي، سرير نومي.. مأواي!

وقفت في صالة الانتظار الانكليزية، تأملت بلاطاتها المضاءة، الصقيلة، وارتطمت بجمهرة المسافرين الذين احتسوا الخمرة الفرنسية في البار، وخفتُ كثيراً من نظرات بعضهم، النظرات البلهاء، والتي تحدق في فراغ، وخشيت ان يتعرف احدهم علي، كانت لهم وجوه مشرَّدين، أو عيون مخبرين يتلصصون بها، كانت لهم وجوه مرضى، وجوه متنزهين، وباحثين عن عمل،.. وكدت اقول لنفسي، ان من المحال التعرف على وجوه الجلادين من بين هذه الوجوه!

في الليل.

وطوال الوقت، لم تهدأ الحركة في صالة الانتظار الانكليزية ببلاطاتها الصقيلة، أو المتوسطية، وكنا جميعاً، بانتظار قطار الساعة التاسعة.

سأل أحدهم:

هل هذا قطار البصرة؟

اجاب الآخر بلا إكتراث:

ــ ربما

فرد آخر مصححاً:

ــ ولكن لايوجد غيره في هذا الوقت.. اكيد انه قطار البصرة! كم الساعة الآن؟

كنت وحيداً، متعباً، وألم الساق ارهقني أكثر. لقد كان تجوالاً متعباً، كنت وحيداً، عندما تدحرج الطفل الاشقر، مثل كرة من مطاط واندفع بقوة فوق البلاطات، ثم توقف قريباً مني يحدّق فيّ باستغراب، تطلع كثيراً نحوي بعينين فرحتين. طفل اشقر بفانيلا برتقالية وسروال ازرق.

أكلنا العنب، وشعرت مع هذا الكائن الذي تدحرج نحوي من مكان ما في الصالة الانكليزية، بألفة عجيبة، وسررت اكثر لاستجابته السريعة، التلقائية لرغبتي في مداعبته، لكنه كان ما يزال ينظر إلّي باستغراب.

كنت مشغولاً مع الطفل الأشقر، عندما ربّت احدهم على كتفي، ففزعت لمنظره. لم أكن قد تعرفت إليه من قبل، وكدت أقول له: إنني لا أعرفه، عندما بادرني بالسؤال:

ــ تسمح لي بنظاراتك؟

ــ ماذا؟ قلت مستغرباً.

ــ نظاراتك؟

ــ ما بها؟

لقد كان طلباً غريباً للغاية، فالرجل يرغب بكتابة شيء ما عاجل، ولكنه فقد نظاراته، والحال هذه، يتعذر عليه انجاز ذلك دون نظارات! وفي مواجهة فزعي واستغرابي لطلبه.. انسحب الرجل خجلاً دون ان يتفوه بكلمة اعتذار واحدة.. يا لهؤلاء المسافرين، كم هم غريبو الاطوار.

□ □

احتشد الجنود الذاهبون إلى الشمال (هل هم ذاهبون لحرب الشمال من جديد؟) وازدحم المسافرون معهم. كانوا مصفرّي الوجوه يحدقون بالفتيات الرشيقات بنهم واشتهاء وبلادة، والطفل الاشقر، ما زال بقربي. ان كل ذلك يكاد ينسيني بعض الوقت الحاجة إلى النوم.

سمعت من يقول:

ـ انه قطار الموصل

كان الطفل الاشقر هو مودعي الوحيد في صالة الانتظار. لقد شعرت بعمق الفراغ، الموحش، الثقيل، الذي سيندفع في روحي بقوة عندما اودع هذا الصغير. انه يودعني الآن بذات النظرات القلقلة. ينظر باستغراب لرجل مر قبل قليل وسيمر نهائياً.

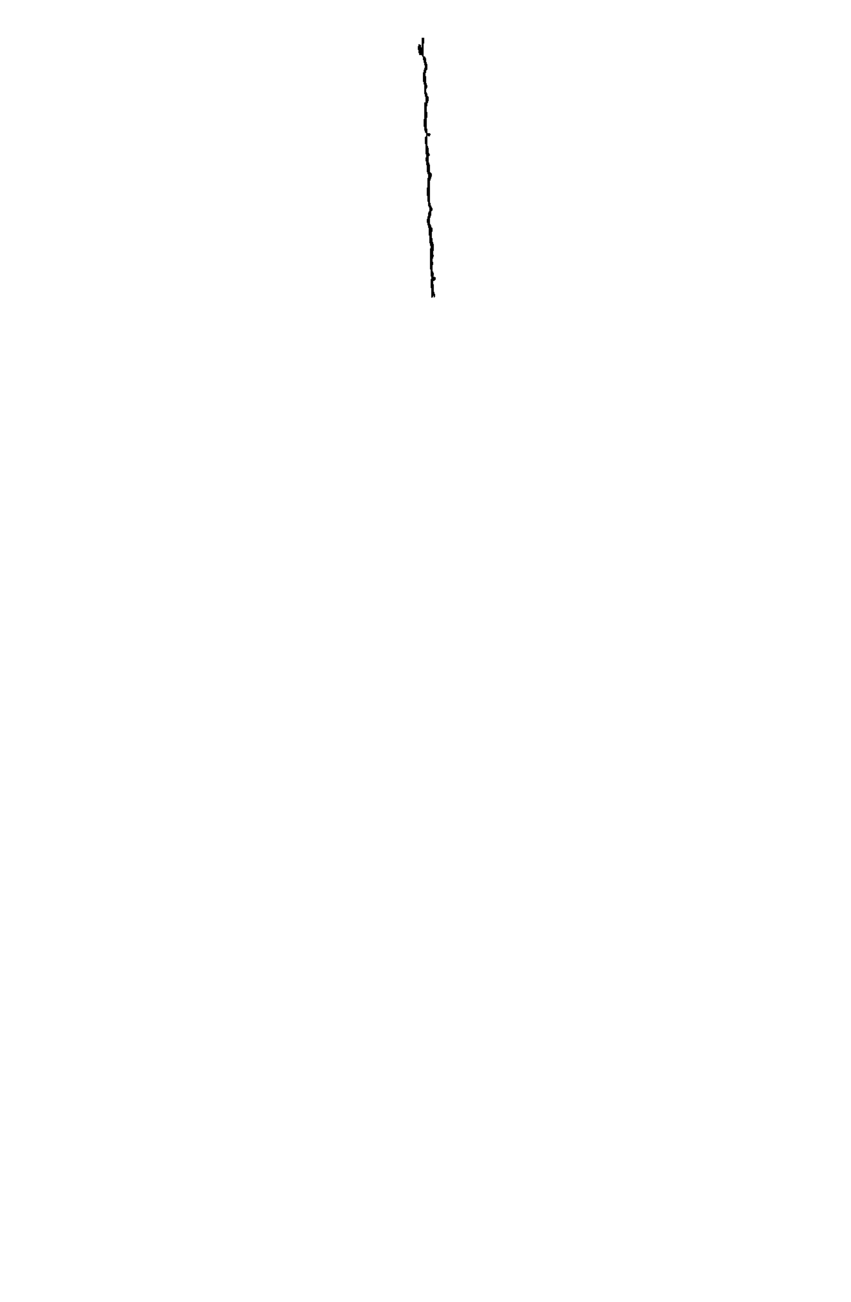
في القطار، مازحت العجائز المسنّات، والمسافرين المرضى، وساعدت بعضهم على حمل حقائبهم الكثيرة. انهم يذهبون ـ في الغالب ـ الى حمام العليل، ينفضون الاوهام

والروماتيزم والطفح الجلدي والضجر. لقد كانوا يواجهونني بالابتسامات، وفي ايديهم تذاكر السفر، يبحثون عن مقاعدهم، مرتبكين، يضحكون، او يتصنعون الابتسامات العابرة او يلقون التحايا باستحياء. انهم يقهقهون باصوات عالية، ويمرحون كالصبيات، كما لو أن مدينة ما، مدينتهم على الأقل، لم يدخلها الجنود هذا الصباح باحذيتهم وبنادقهم، ونشروا السلطة المريعة.

بحثت عن مقعدي، واسلمت له جسدي المنهك، فشعرت بالراحة والاطمئنان، لانني أخيراً، اكتشفت بيتاً، مخبأً، متجولاً، ونمت نوماً عميقاً.

□ □

عدن: ١٩٨٠/٢/٢١



السقوط العظيم

■ دقت الاجراس عالياً منذ الفجر، حيث المدينة نائمة، متشحة بالقليل من الضوء. كان الرنين قوياً، حاداً، مثل دفق من النور أو البرد. الرنين الذي يبعث النشوة واللذة او الاحساس بالموت. دقت الاجراس مراراً ذلك الفجر وسمعت الاصداء تردّدها الابنية الوطيئة، الضيقة، واسواق التوابل، والثكنات والميناء القديم.

كانت الاجراس تقرع، والاصوات تتلاحق، تنتشر في الفضاء الفسيح، والمدينة بطقسها الاستوائي اللافح، ما تزال تغط في نوم عميق وطويل. لكن، ثمة من يحث الخطو، مغموراً بالفجر والاصوات، يعبر مسرعاً، الشوارع والحارات والأزقة المظلمة غير مبالٍ ابداً.

لقد اعتادوا ذلك كثيراً، مع إنها المرة الأولى التي يبدو فيها القرع أشدّ، فمن الميناء القديم، حتى سوق الهنود، واسواق التوابل، ومبنى البلدية، حتى ثكنات الجيش، كانت الاصوات تملأ الأبنية وتزداد وضوحاً، مخلفة صدى موحشاً. اجراس

كبيرة، مجوفة، مقعّرة، ملساء، صغيرة، حديثة الصنع، أو تقادم عليها الدهر. اصوات اجراس قادمة من فناء بعيد، بيضاء، من النحاس أو الحديد، تقرع في الفراغ الشاسع الطيب، في الفجر الدافىء، الحزين اجراس للفزع أو المآتم القادمة، او صلاة الأحد المعتادة. اجراس تعلن عن هزيمة مقبلة او نصر وشيك، رحيل أبدي، أو همود دون رحمة أو وداع اجراس تدعو لطلب الغفران او تعد بالثلج، قداس جنائزي، او قداس رعوي تحت النهار المشمس الوشيك. بدأ الصباح الآن.

وكانوا يواصلون لهاثهم، يقطعون الشوارع، ويدخلون الازقة ويغادرونها يبتاعون، يسمسرون، يعرضون بضائعهم أو مفاتنهم أو عوراتهم العقلية، التي تبدو في الصباح الباكر، اكثر اتزاناً. لقد بدا ان المدينة يغمرها النور واصوات الاجراس، لكنها، ابداً، ضائعان لامحال في الضجيج واللهاث. ومع أن الاصوات بدت خافتة، في آخر رمق مصابة بالوهن، الاّ أنها ما تزال تسمع في الميناء القديم الخالي من السفن وقوارب الصيد. كانت المدينة، في الفجر الكئيب، قد بدأت لهاثها التعس، في الهواء الثقيل، المشبع بالرطوبة.

□ □

في الممر الطويل، الصقيل، اللامع، في الارجاء المشعّة. كان كمال مصطفى يجثو على ركبتيه منتحباً، يحدّق في الخوري الصغير السن، بعينين راضيتين، متوسلتين. كان لابد من الصمت، الصمت الذي يخيّم الآن مثل الغيبوبة أو الموت، واهناً، مستسلمًا.

ـ لقد جئت اخيراً.

انطلق صوت مكبوت، من اعماق نائية، خفيفاً، صقيلاً، حاداً.

ـ فتساعدني على طلب المغفرة إذن.

ذهب الخوري إلى آخر الممر، تفقد الكراسي المصفوفة بانتظام، تلمس خشبها الصقيل بدهانه الخفيف وألوانه المتآكلة، حاملاً اصحاح لوقا، تاركاً لكمال مصطفى كلمة مبهمة، لكنها كانت كافية لتعده بالراحة والاطمئنان:

ـ لتكن هادئاً. المخاوف تفسد القلوب..، سيأتي الأب.

بعد قليل، عاد الخوري وكان كمال مصطفى يجهش بالبكاء، يجثو على ركبتيه بخنوع، لقد كان عليه أن يفكر كثيراً قبل ان يقدم على المجيء إلى الكنيسة، إنه لايتذكر أبداً، ما إذا كان قد خطر له ان يكتشف فيها ملاذاً لامثاله، ولكن الخطايا ترتكب في الهواء الطلق، وليس ثمة من يطلب المغفرة والصفح، وبالنسبة له، فإن الامر قد وقع لامحال، وها هو يأتي طالباً. ماذا؟ ايّ شيء سيطلب؟ المغفرة؟ ابداً. الرحمة؟ ابداً. لماذا إذن قطع كل هذه الطرقات والشوارع سراً، متخفياً بثياب خوري؟، لاهثاً، مسرعاً، حتى وصل هذا الممر المشع. وها هو بملابس الخوري، يجثو امام الخوري الصغير السن حامل الاصحاح، والقاعة فارغة إلاّ من ظليهما. كانت الكراسي قد صفّت بانتظام وعناية، تحت الثريات الكبيرة المذهبّة تماماً، قبالة الايقونات القدسية، للحواري، وللعذراء وهي تحنو على يسوع الصغير

بيدين طريتين، بيضاوين. مرت لحظة صمت طويلة، اطرق فيها كمال مصطفى برأسه منتحباً. وفيما عدا ذلك. كان هناك الفراغ. الفراغ الذي صُفّ بهيأة كراسٍ خالية من المصلين، متجاورة، نصف مضاءة. لقد أطبق الصمت، والاجراس كفّت عن الضجيج، وبدا ان لاشيء يعكر الفضاء. ولم تعد الاصوات تسمع، لا في سوق الهنود، ولا ثكنات الجيش، ولكن كان هناك من يهرع ليقطف ثمار لهاثه العجول، الغريب، المثير للريبة والاشمئزاز، من يجني ارباح الركض المجنون والمساومات، في الممرات الضيقة، والموانىء، والابنية.

منذ وقت طويل، وهذه المدينة اللعينة، بطقسها الاستوائي، تطلب الرحمة والمغفرة كل يوم، من معصيّة لم ترتكب، الرحمة التي لم تعد سوى كلمة ضئيلة الشأن وضعيفة الوقع في القلوب الخاوية، كلمة صغيرة، غير مرئية، وغير قابلة لأن تلمس. كان ثمة ما يبدو، انه موت مطبق، موحش، وكمال مصطفى في المخبأ السري يستعير ثياب خوري بعد ان عزم على ذلك. لقد تذكر فجأة ان ثياب الأخ الاصغر، الذي صار خوريا منذ وقت طويل، ما تزال في خزانة الملابس. كانت ثياباً قديمة، ولكنها مع ذلك كانت صالحة للاستعمال في مدينة كهذه لاتعرف الفرق كثيراً بين ملابس الخوري و«الموظة»، ولذا كان لابد من جلبها، ولقد تم ذلك بشيء من الصعوبة، فكل حركة كانت تثير الشكوك وتجلب المطاردة، وفي المخبأ السري الذي تم اعداده بعناية شديدة، كان كمال مصطفى، يراقب هشاشة الاشياء، وتساقطها المتتالي، المنتظم، الاشياء التي بدأت

تتداعى، وتتساقط اثراً، اثراً، وبدت أنها آيلة إلى زوال محتوم وتآكل واندحار، ولاشيء يوقف هذا الانهيار العظيم. كان سقوطاً مروعاً وانهياراً شاملاً حيث الانباء القادمة إلى المخبأ السري، مخبأ الخوري المزيف، مثيرة، تفصح عن هشاشة فظيعة، تماماً، مثلما يحدث لاولئك الذين يجسّون ليلاً ارضاً رخوة فيكتشفون فيما بعد أنهم انما يغوصون في الهاوية المرتيّة، المخادعة. لقد اضحى الجميع دون مأوى، كما لو أنّ زلزالاً حطم كل شيء، والقى بهم في العراء الجميل. يهيمون على وجوههم مثل متسولين اجلاف، بوجوههم المتسخة وعيونهم التي احمرّت من شدة الارق، تتنازعهم المخاوف والاحتمالات ومرأى الزنازين والاقبية المظلمة، وليس هناك ما يشير إلى ان الامر سينجلي سريعاً، أو انه محض زوبعة خرقاء سرعان ما تزول، وتتكشف الاشياء تحتها بوضوحها المعتاد.

كمال مصطفى، كمال مصطفى، كمال مصطفى. لقد قرر اخيراً ان يتخلى عن هذا الاسم المستعار، ان ينزع عن روحه هذه الاشياء التي تبدو دون طائل. ليس من امل سوى الاستسلام. ان يخرج المرء بيدين عاريتين، وصدر مفتوح لتلقي البصاق الركلات. كان كمال مصطفى في المخبأ السري، يتذكر كل ما حدث ليلة الأحد، او ليلة الاثنين، أو الجمعة الحزينة التي مضت قبل ايام، وجوه الاصدقاء، والاخوة الذين اهينوا، واحداً، واحداً، فآلوا إلى سقوط مدوٍّ. لم يتبق سواه اذن، لكأن الطاعون اجتاح الجميع، الطاعون الذي ينقض جنوده، مثل صقور جائعة على فرائس مكشوفة في العراء، في الهواء الطلق،

حيث ينتظرون امساك الخيط إليه. ومع كل نبأ جديد، كان كمال مصطفى يتحسس موضع الألم المقبل. إن لديه من الاسرار ما يغري على نصب الشباك والفخاخ لاصطياده، فريسة سمينة لم تتعب من الجري بعد. لكنه وحده، الذي يعرف كم بلغ به التعب وهو في المخبأ منذ شهور، المخبـأ السري حيث الظلمة والخوف وثياب الخوري الجاهزة للاستعمـال. إنه يتـذكر الآن بوضوح، كان يجري لاهثاً مع عمته إلى صلاة الاحد. طفل صغير تجرجره امرأة مسنّة في القيظ. فجأة تعثرت قدمه بشيء ما، ولم ينتبه للجرح البليغ الذي علق به اثر السقطة. ندبة بيضاء لامعة فوق الحاجب. كان الطفل فزعاً، وهو يرى إلى ذلك الشيء، الطويل، الممدّد، المغطى بالصحف وقصاصات الجرائد البائدة. قبالة الكنيسة، فيما كانت الاجراس تقرع بشدّة يوم الأحد. تلك هي المرة الاولى التي شاهد فيها جثة القيت منذ الامس، فتفسخت بسرعة تحت الشمس المحرقـة. حيث الرائحة النفاذة تملأ الساحة. كان يشم في المخبأ رائحة تفسخه هو، في الدرجة المئوية التي يتعرض فيها الجسد الانساني للطبخ أو الشواء. لقد شمّ شيئاً من ذلك، فظن انه يتفسخ اكثر من المعتاد في هذا الجحيم من الخوف. لقد اشتدت المطاردات منذ وقت، ولم تعد ذات نفع كل هذه الترهات والاقاويل الفارغة، لا جدوى، انه يتفسخ وحيداً في المخبأ، والذين كانوا بأمرته، اصبحوا الآن، جيشاً من الوشاة والمتلصصين والادلاء. واضحت التعاليم، المقلوبة الآن، خير دليل على أن السرعة القصوى في الانهيار، هي محض بداية لفناء شامل.

في هذا الجو الخانق، حيث المخبأ، مؤلف من نافذة لاتفتح، في غرفة صغيرة خالية من الضوء. جدران صماء، واشياء مكدّسة في هذه الورطة الثقيلة، شعر كمال مصطفى، ان شيئاً ما يهبط من فوق، غير قابل للكسر. لكنه يسمع الآن خشخشة هشيمه العظيم. كانت الطفولة تأتيه مسرعة، طفل صغير ببنطلون قصير ازرق، وصدرية صفراء، يهرول في الساحة، قبالة الكنيسة، المحاطة ببيوت ذات نوافذ كبيرة، مشرعة، والرنين المبهم، والتراتيل، والعمّة المتشحة سواداً، والمدينة ذات الطقس الاستوائي اللافح، واصوات التكبير لله وحده في المآذن العديدة، وجموع المصلين، وتختلط الاشياء. لقد تذكر فجأة، ذلك المنظر البعيد، منظر اصطدامه بالجثة المغطاة بالصحف، فحاول، في الظلمة المطبقة، في الكآبة والخوف الشنيعين ان يفسر الحادث. انه لايعرف على وجه التحديد، ما إذا كان الامر مسلّياً ام لا؟ لكنه متأكد، من انه في وضع كهذا، لايملك سوى حلوله البسيطة لملء الفراغ، القادم من الاعماق، من الجدران الجرداء، من الاشياء المتكدسة، من الظلمة، من الكآبة، من الوهن، من الخوف من هذه الرائحة النفاذة لتفسخه. كان الامر غاية في البساطة، بالنسبة له. فثمة فراغات في دفتر مدرسي. وانه لمن المجدي، ان تملأ على وجه السرعة، بالنفايات، أو الاكاذيب، أو الحماقات، أو التخريفات، أو التذكر، أو التفسيرات. ليس ثمة سوى انباء السقوط والجلاء عن المدينة. لقد بدا أن المدينة تتعرض لانتهاك على يد غزاة لامرئيين. انتهاك فظ وقاس، في وضح النهار، وعلى مرأى

ومسمع الجميع. وحين تذكر الجثة المتفسخة في العراء، شعر بارتباك وقشعريرة، فدفع عن خياله المريض تلك الاوهام. إنه خائف بكل تأكيد. وإلاّ ماذا يعني كل هذا الارتجاف؟ كان قاسياً مع اولئك الذين كانوا بمعيته او تحت امرته. قاسياً وصارماً، فلماذا يبدو الآن خائر القوى في المخبأ السري، مستسلمًا لذلك الضعف في الظلمة والضجيج الذي لايسمع، ضجيج استذكاراته، والانباء القادمة التي يحملها إليه الهائمون على وجوههم. افلح في طرد صورة الجثة المغطاة بالصحف من رأسه. وعاد إلى هدوئه. لكنه سرعان ما تذكر أمراً مريعاً آخر. لقد جاءته صورة جبار الكاظم، ذلك السمين، بكرشه المترهل، وضحكاته العارمة. كان يردّد دوماً، ان منظر جبار الكاظم يكشف عن الخلل في توزيع الغذاء في العالم، وعندما يكون المزاج رائقاً، يسأله، ما إذا كان رأسمالياً سابقاً كي يكون له كل هذا الدرن. هل انت بروليتاري؟ يسأله... فيجيب جبار الكاظم، إذا لم أكن كذلك، فسأكون. لكن جبار الكاظم، سرعان ما ركب دراجته البروليتارية التي نقل فيها مراراً المنشورات والبيانات، وقطع بها ذات الشوارع، ثم توقف قبالة المبنى. قال شيئاً سريعاً، بارتباك وخجل وخوف:

ــ ها جئت بنفسي. انني مستعد لأن اعطي.

ــ كل شيء.؟

ــ كل شيء.

ومثلما يحدث في السوق، في المبادلات السريعة، في المساومات المعقودة في النهار أو الظلمة، سلم جبار الكاظم ما

لديه، واستلم ثمنها سلفاً. حياته! تذكر كمال مصطفى ذلك، فشعر بالضيق من اسمه المستعار. لقد كان له اسم جميل، منزل، ونبيذ. ما نفع كل هذه المخابىء امام الشمس والهواء الطلق، والنزهات؟ لقد تجمعت الاشياء كلها في رأسه الآن، الجثة المتفسخة في العراء، وأجراس الكنيسة، وجبار الكاظم، والمخبأ، والظلمة، والنبيذ، والمدينة، والتراتيل. كانت ثياب الخوري التي استعارها سراً من خزانة ملابس اخيه الاصغر، مهملة في ركن من المخبأ. في هذه اللحظة، هذه اللحظة بالذات فكر كمال مصطفى ان يفعل شيئاً للخلاص.

□ □

الاجراس التي قرعت ذلك الأحد، في الفجر، وعمّت اصواتها المدينة، من سوق الهنود، حتى الثكنات، والتي لم يسمعها احد. كانت اجراس الكنيسة الوحيدة في هذه المدينة اللعينة ذات الطقس الاستوائي اللافح.

– إنني أصغي إليك يا بنيّ.

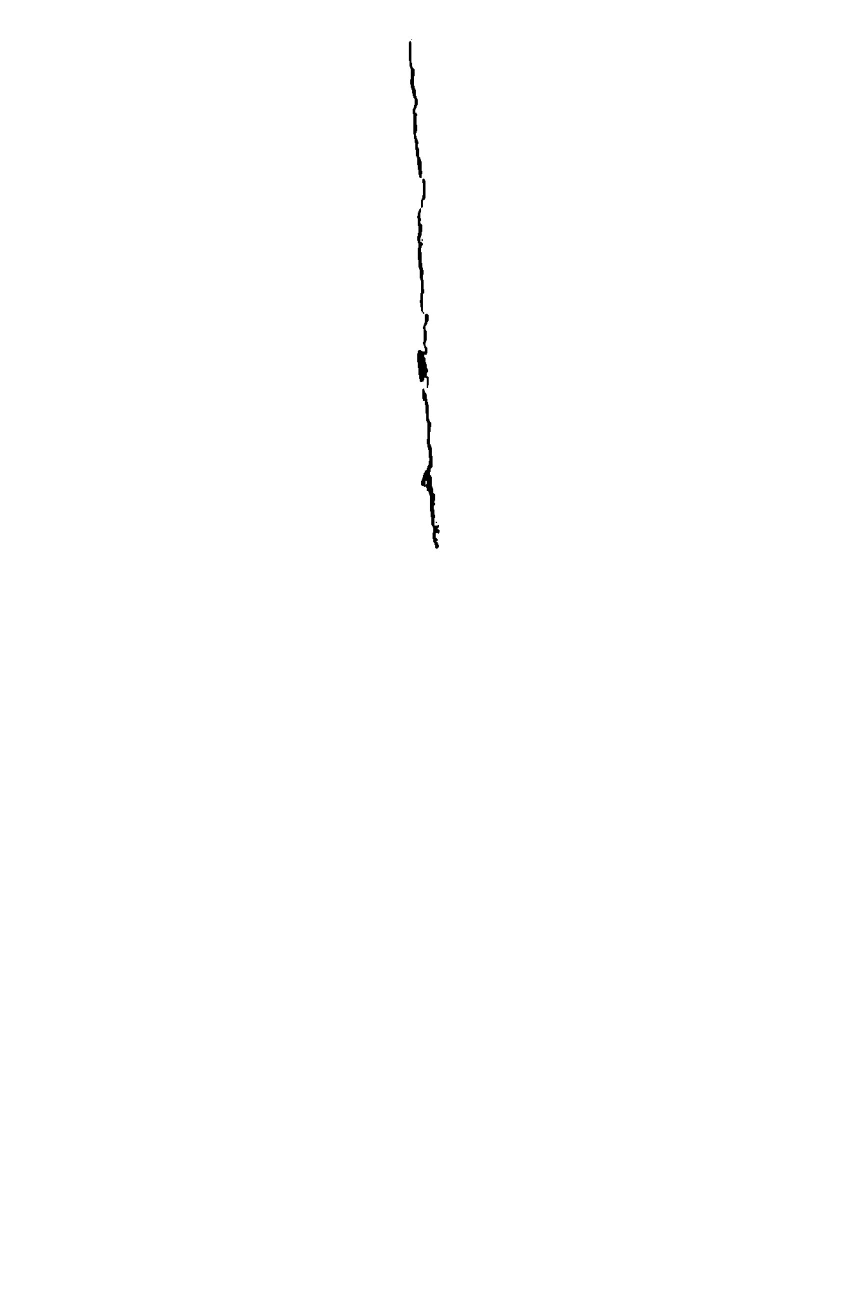
جاء الصوت من أول الممر الصقيل، الطويل، المشع. كان صوت الاب الذي انتظره كمال مصطفى بملابس الخوري المستعارة. انهما ينتظران هذه اللحظة منذ وقت طويل. لكن الاب كان ينتظرها منذ عشرات السنين، منذ قرن، او قرنين، انها اللحظة التي يصعب تكرارها. فهاهو كمال مصطفى، يخرج أخيراً من المخبأ السري، بملابس الخوري، ويقطع كل هذه الشوارع، المضاءة، المظلمة، الضاجة، والخالية، ويأتي ليجثو

على ركبتيه امام الاب. لقد قرر اخيراً ان يدلي باعترافاته كاملة، سيسلم كل شيء للأب، وينتظر معه وعداً بالابقاء على حياته. في تلك اللحظة شم كمال مصـطفى رائحة تفسخـه، تفسخ جثته، في العراء، قبالة الكنيسة، جثته المغطاة بالصحف.

٢٧ شباط ١٩٨٢

دمشق

الموكب



■ جاءت التوابيت من الشمال، تحملها ثلاث سيارات. توابيت من الخشب الصقيل، المصبوغ بالدم، صفت بانتظام، وبدت، بترتيبها الدقيق، مثيرة للحزن والكآبة والفزع، لأولئك الذين احاطوا المركب وهو يشق طريقه في المدينة ـ ذلك الحشد الذي يسير ببطء خلف موكب من التوابيت، دون موسيقى جنائزية أو أكاليل ورد. شق موكب السيارات طريقه، محاطاً بالنسوة المتلفعات، المتشحات بالسواد العظيم، بالنّدابات، واللطّامات، والبكائين، والمجللين بالدموع، بالصبيات النحيلات والفتية المكتئبين. واخترق شوارع المدينة في الظلام.

جاءت التوابيت أخيراً، تلك التي كانوا بانتظارها منذ وقت طويل، جاءت بسيارات حمولة من الشمال، في موكب حزين، توقف مراراً في المدينة، دون أن يفرغ حمولته، فلدى سائقي السيارات الثلاث اوامر صارمة. (أن تدخل المدينة في الظلام) ببطء.. ببطء ودون جلبة أو ضوضاء.

وفي منعطف مائي، شق الموكب طريقه بصعوبة، وخوض

المتجمهرون حول السيارات الثلاث، بالماء، وهم يصرخون بها ان تتوقف. لكنها كانت تشق طريقها في ظلام المدينة ببطء. لقد حل الظلام والموكب لايزال يتقدم، وسط هياج وفوضى المتجمهرين، الظلام الذي اطبق الآن على المدينة، كان ظلاماً طويلاً، أكثر مدعاة للاحساس بالموت والاكتئاب والقلق.

قفز فتى رشيق، وهو يخوّض بالماء، إلى سيارة الشحن، وامسك بيديه الاثنتين مقبض الباب، حاول مراراً سحبه، لكن السائق كان يقظاً للهجوم المباغت، فدفع الفتى الى الماء، وواصل الموكب سيره البطيء، الثقيل، فيما كمان الفتى ما يزال يمسح عن جسده آثار السقطة.

وامام دائرة الشرطة، توقفت السيارات الثلاث، وانزلت التوابيت. بعضها ملفوف بالعلم الوطني وبعضها بالخرق والاسمال والجوارب وضمادات القتلى الملطخة بالدم. كان شرطيان مسنّان يتوليان انزال الحمولة. وفي ظلام المدينة المطبق، افرغت السيارات حمولتها وذهبت، فاعطى الشرطيان المسنان الاوامر بفتح التوابيت. كان المتجمهرون حول التوابيت التي اصبحت الآن في الباحة، في العراء البارد، يواصلون بدأب مهمتهم العجيبة، بتأمل الوجوه وفحصها.

مراراً تفحصوا الوجوه، وقلّبوها، وجسّوها باصابعهم، ولربما استعان بعضهم بعيدان الثقاب المشتعلة، للتأكد من تلك الملامح الحادة، التجاعيد في الوجه، والشفتين اليابستين، والاصباع المتيبسة. لكن تلك الاجساد النحيلة، المُمدّدة في

التوابيت، كانت ما تزال في رقدتها، مسالمة وهادئة، وجوه بيضاء، وسمراء، مدورة، صغيرة، اجساد نحيلة، اجساد طويلة، لكنهم كلهم يواصلون مهمتهم العسيرة، كانوا يقلّبونها، يتفحصونها، تماماً، مثلما يتفحصون بروية بضاعة رخيصة الثمن. انها آخر دفعات الحرب التي انتهت، الدفعة التي عادت دون اسماء وملامح، لقد كان عسيراً معرفة اسماء هؤلاء الذين جاءوا في موكب الظلام. ووسط الفوضى والبكاء والصراخ، كان الاباء والامهات يتفقدون الزائرين الذين ما يزالون يرتدون بسلام، يتفقدونهم واحداً، واحداً، واحداً.

ــ لا. ليس هذا ابني. هذا الجندي نحيل اكثر مما ينبغي.

صرخ شيخ وهو يلّوح بعصاه، مشيراً إلى الجندي الراقد. فيما قالت إمرأة مسنّة:

ــ دعني أرَ. اقسم انه ابني. افسح الطريق.. يوه!

ثم حدّقت جيداً في وجه الجندي النائم، الذي مدّد يديه إلى جوار فخذيه بانتظام، كان يبدو مستسلمًا لاسترخاء طويل، منتظراً لحظة أن يقف نشيطاً امام زائريه، ومتفقديه في الظلام. كان الجندي يبتسم في وجه العجوز. لقد عدت يا اماه. ها أنت ترين. لكنها كانت صامتة. تحدق ببلاهة وخوف إلى عينيه المفتوحتين وفمه الباسم.

ــ استغفر الله. انه ليس ابني.

قالت ذلك ببرود. اما هم. فكانوا ينامون بهدوء، حالمين

بالدفء والعودة إلى البيت. لقد حصلوا أخيراً على اجازة، وعما قريب سيخرجون من مملكة التوابيت إلى فناءات البيوت.

حلّت لحظات صمت طويلة، قطعتها اصوات همهمات قادمة من الظلام، من الحشد البشري. كان سكان مملكة التوابيت، التي جاءت محمولة في موكب من ثلاث سيارات، شقت طريقها في المدينة مع حلول الظلام، ينامون، نوماً طويلاً، بهدوء ووقار، لكنهم الآن يستيقظون امام الفوضى، فيحدقون في الخليط الغريب من البشر المتلهفين لرؤية آخر دفعات الحرب. كانوا شجعاناً كذلك، وهم يحتملون بصبر، الالم الفظ، ألم تقليبهم على جراحهم الطرّية، على خاصراتهم المطعونة، أو بطونهم المثقوبة بالرصاص والحراب.

صرخ الشرطيان المسنّان، وهما يحدقان في الحشد البشري في الظلام.

ـ ليأخذ الآباء ابناءهم!

لكن الحشد، كان صامتاً، لم يتقدم احد ابداً، بل انفض فجأة. تاركاً الساحة المكشوفة، والتوابيت التي يرقد في داخلها اولئك الحالمون بلقاء ذويهم في العراء. انفض الحشد، وانكشف المشهد الوحيد، مشهد اولئك الذين جاءوا المدينة في موكب يحيطه المتلهفون، المتجمهرون، دون موسيقى جنائزية، أو أكاليل ورد، دون كلمات ترحيب، أولئك الذين جاءوا المدينة، وهم يحلمون أن يتعرف عليهم وسط الغبار والجراح، اباؤهم أو امهاتهم، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ابداً. انفض الحشد

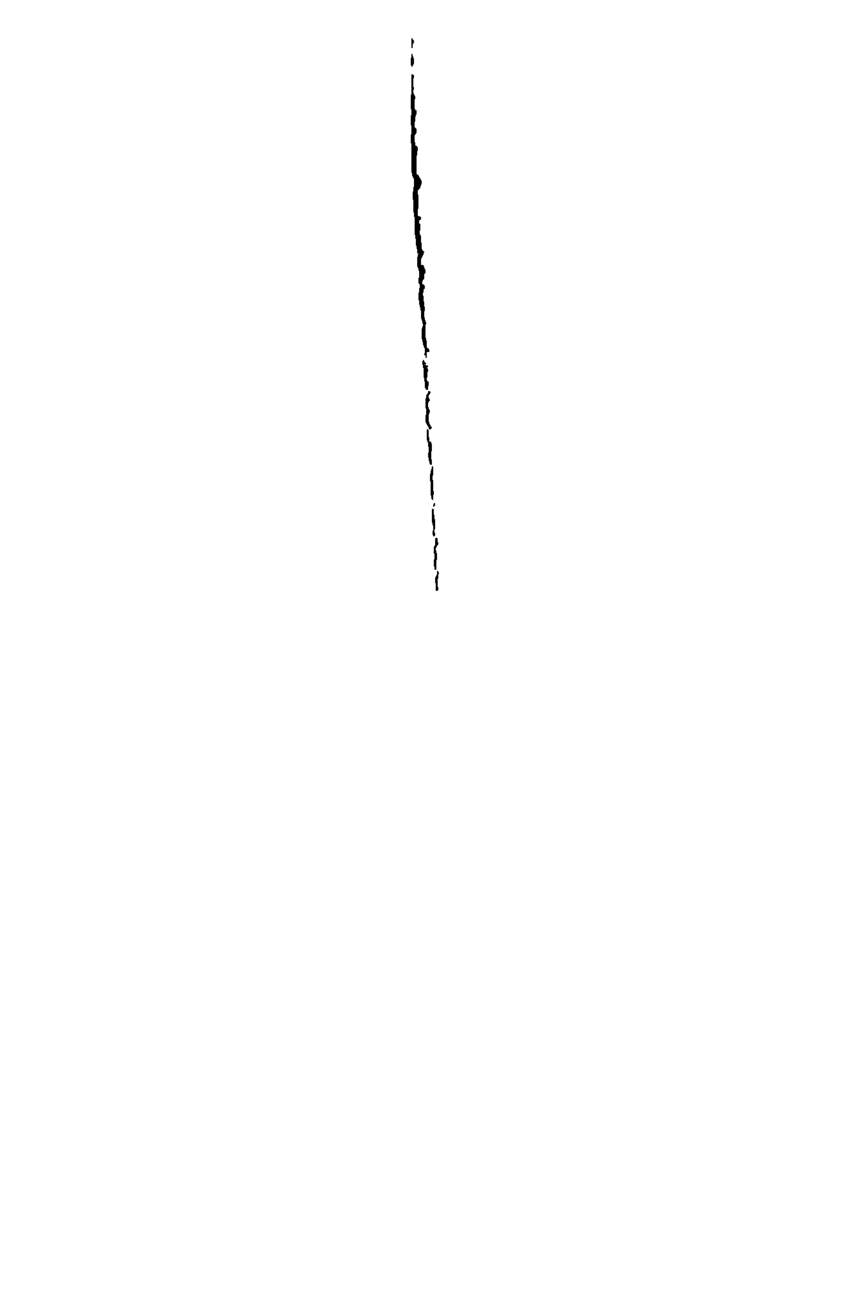
البشري، تاركاً التوابيت المفتوحة، في العراء، في الظلام.

لقد حدث خطأ بسيط، خطأ صغير، يكاد لايرى ابداً، لكنه فظيع، وجسيم بصورة لاتوصف. كان على الموكب القادم من الشمال ان يقصد مدينة اخرى.

اوائل آذار ١٩٨٢

دمشق

تنويمة للهجرة الثانية



كانت هناك غرفة صغيرة. غرفة صغيرة في بيت وحيد، بيت وحيد في شارع مظلم، لاتظلله الاشجار، ولايتوقف عند عتبته الاصدقاء، والمتسولون. كان وحيداً ونائيـاً وكئيباً. كـل مساء، يجلس المهجر مع زوجته وطفلته الى التلفزيون ثم يحتسي شيئاً من خمرته المثلجة، ويذهب للنوم تعباً. لقد تأخرت الرسائل كثيرة هذه المرة، ولم تأت انباء جديدة، ومع ذلك، ظل صبوراً، هادئاً، وحيداً.

يحدث أن يأتيه الاصدقاء مساء، يحتسون الخمرة معـا، خمرة رديئة محليـة الصنع، أو يـأتيه احـدهم فرحـاً بقنينة من الفودكا، يذهبون بها على الفور الى الثلاجة، وينتظرون بشغف.

مراراً يحدث أن يظل وحيدا، يقلب الاذاعات واحـدة واحدة، انباء متضاربة ومشوشة، ولامعنى لها، والوطن البعيد نسيته الاذاعات والاغاني. ويحدث أن يسهر حزينا مع رامبو.

ويحدث أيضاً ان ينام هادئاً، على تنويمة اطفال.

تدندنها زوجته.

هكذا هي الحال، غالباً.

كانت تواصل سرد القصص عن شحاذين صادفتهم في الطرقات، عن صبية يمرحون في شط العرب، عن انابيب البترول التي تدفقت ذات يوم دما احمر في الشوارع النظيفة، عن المدن وطعامها المليء بالتوابل العطرة، انه يتذكر جيداً، الآن، وبكل التفاصيل، تلك القرية التي وصفتها له ذات يوم، كانت تقترح عليه الفرار اليها، هناك كانت ستؤويه اختها الكبرى المهجرة منذ عام ١٩٧٠.

هكذا هي الحال، غالباً.

وكما يحدث كل مساء، جلس المهجر يشاهد التلفزيون، كانت الساعة في عدن هي الثامنة لقد هدأت المدينة الآن. واقفلت المراكب عائدة، ونام صيادو (الجدب) و(البياض) انهم ينتظرون الغد، الخميس، آه الخميس، يا له من يوم حافل بالنشاط! مخزنو القات يجلسون حتى الصباح.

كانا يجلسان معا يشاهدان التلفزيون، وكانت تحدثه عن طفولتها.

وكان التلفزيون، ينقل شريطاً مصورا، للمهجرين عبر الحدود الى إيران، لقد بلغت الآن حشود المهجرين العراقيين ثلاثة وعشرين ألفا: رجال دون زوجات، زوجات دون ابناء مسنون دون ارث.

ـ ثلاثة وعشرون الفا! يا إلهي انه عدد مخيف!

قال المهجر ، بحزن وخوف.

لم يكف المصور الانكليزي عن التقاط الصور، سيكون الشريط مربحاً بصورة مجزية هذه المرة.

هكـذا يفكر هؤلاء، وسيقبـل على شـرائه الايـرانيـون والخليجيون والشركات والساسة والصحف والدول والافراد.

كانا يشاهدان التلفزيون معا ـ وكانت قد كفت عن ان تحـدثه عن مـدينتها وطفـولتها.. والكـاميرا، تـدور بحـذاقـة ورشاقة..

ظل التلفزيون ينقل شـريطاً مصـورا صامتـا، وسيارات النقل الكبيرة، الشاحنات، سيارات الجيش، البغال والحمير، كلها تجتاز الحدود محملة بالبشر المرمين خارج بيـوتهم حشودا حشـودا، كانـوا يجتازون الحـدود، حمالـو الشورجـة، وصيادو السمك في اهوار العمارة، ومستخدمو الدوائـر، كلهـم كانـوا يجتازون الحدود ويمرون امام الكاميرا.

كانت سيارة نقل كبيرة ثم، توقفت امام المخيمات التي ضربت للمهجرين، توقفت ونزل سـائقها، وافـرغت حمولتهـا الثقيلة. كانوا عدة عشرات من التجار، تجار الشورجة بربطات اعناقهم الملونة، وبدلاتهم الانيقة، كان منظرهم مثيراً للضحك والاسى كانوا كالغرباء وسط الحشود الفقيرة من المهجرين.

ضحك المهاجر ضحكة حزينة واطلق صوتاً شجياً، وهو يلتفت الى زوجته التي استغرقت في التحديق وابتدأت تدندن تنويمة الاطفال، كانا وحيدين في الغرفة يشاهدان شريطاً مصورا،

صامتاً عن تهجير جديد. كانت هناك ضجة حول الكاميرا نساء وصبيان وتجار وجنود وشبان وعجائز، لكن الصوت كان بعيدا وميتا. . حاولت الزوجة، ان تستمع إلى ما يقوله الضاجون حول كاميرا المصور الانكليزي، ولكنها انتبهت، لقد كان الشريط مصورا، صامتا. .

ـ ثلاثة وعشرون الفا يا إلهي؟ كيف يحدث هذا؟

قال مستغربا.

كانا يشاهدان التلفزيون، وحيدين، وفي غرفة صغيرة، في بيت وحيد، يطل على شارع مظلم. نامت الصغيرة قبل قليل، منذ ايام وهي تسأل عن جدتها كثيرا، انها الآن في العراق، ازدحمت سيارات النقل الكبيرة وملأت الشاشة، والشاحنات لم تتوقف بعد، انها تأتي بالمزيد من المنتزعين من بيوتهم، من المحلات، الدكاكين، الاسواق الشوارع، تتوقف السيارات الكبيرة، وتتوقف تنويمة الاطفال، يهبط من السيارات الكبيرة سائقوها الحياديون، ويأمرون بافراغ الحمولات، الاكياس والحاجيات والبشر، لكأنهم يقولون بلا اكتراث:

ـ هيا. . انزلوا بسرعة. . لقد وصلنا!

فيهبط المهجرون، فرادى، يمرون من امام الكاميرا، وجوههم الشاحبة وملابسهم الرثة الاف الوجوه التي مرت، والتي تمر الآن امام الكاميرا، لا تقول شيئاً، تواجههم جبال ومخيمات وحراب وجنود، يساقون كالاسرى تصحبهم كلمات مبهمة عن اللقاء الموعود، ثم يأخذون امكنتهم ثانية، قبالة

الكاميرا، والكاميرا تدور، تدور، والوجوه الشاحبة تمر صامتة مصعوقة، حاول المهجر ان يبعد زوجته عن التلفزيون لكأنه يتوقع امرا ما، كما يتوقع المرء طقساً سيئاً:

ـ الا تعدين لنا الشاي!

ـ انتظر قليلا.. انتظر!

قالت بارتباك، وعادت لتستغرق في مشاهدة الشريط المصور الصامت. حاول المهجر ثانية:

ـ الا تعدين لنا الشاي؟

لم تجب هذه المرة، بل اكتفت بالصمت، الصمت الثقيل الموحش.

كانا يشاهدان التلفزيون معا، عندما مرت الاف الوجوه أمام كاميرا المصور الانكليزي، ومن بين الاف الوجوه، فجأة، مر وجه صغير، ودقيق، مدور مليء بالتجاعيد والثغور والنمش، وبلحظة خاطفة، لكأن شفتين حزينتين انفرجتا بابتسامة حزينة، وعينين دامعتين، اغرورقتا ببكاء دافىء وصامت. صرخت الزوجة وهبت من مقعدها مذعورة:

ـ يا ربي! إنها امي!!

واجهشت بالبكاء.

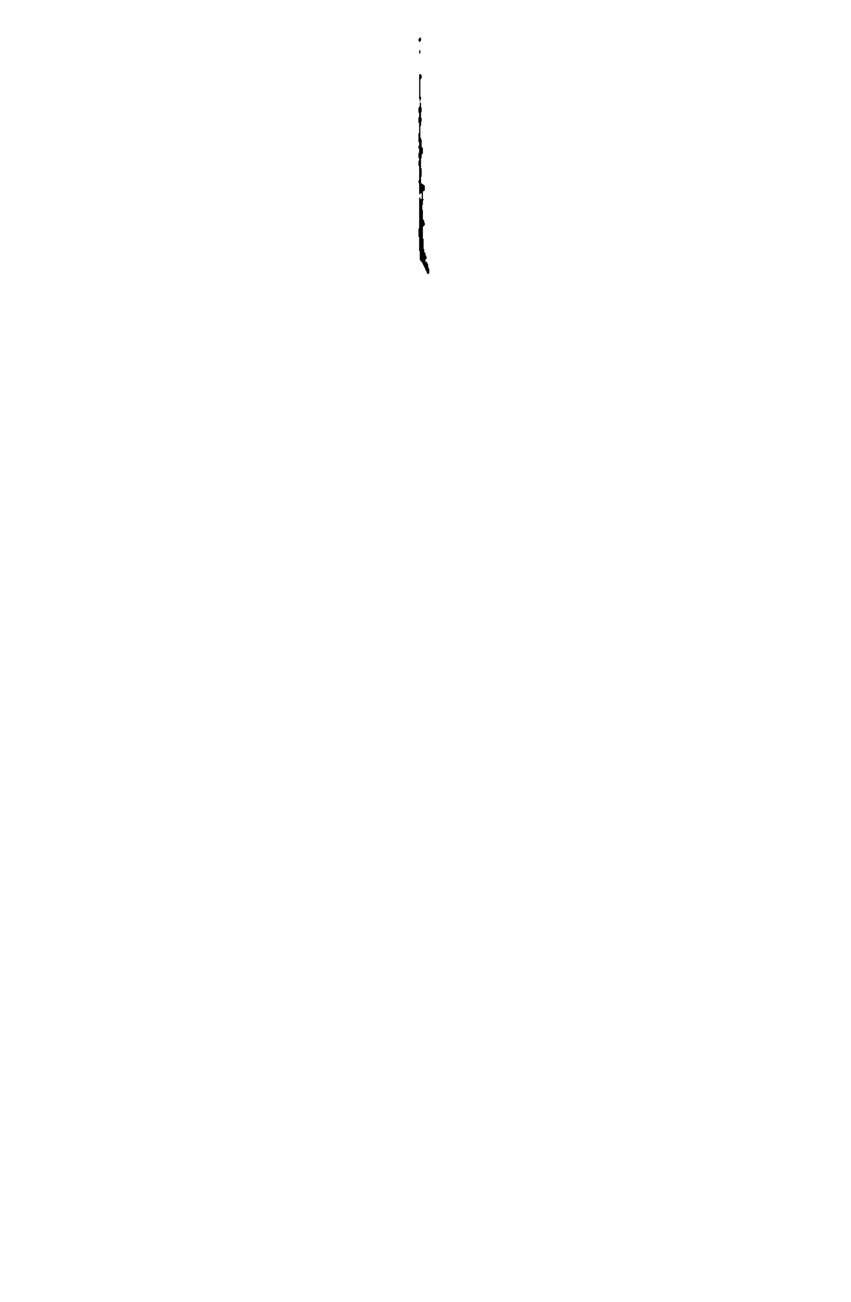
فجأة تغير كل شيء. لقد صمتت تنويمة الاطفال، وكأن ثمة شيء ما تقوله العجوز في التلفزيون، لقد مر وجه حزين من بين الاف الوجوه، مر الوجه أمام الكاميرا مروراً عابرا، خاطفا، لم توقفه الكاميرا، ولم يحدثه شخص، لكن احساسا ما، أن

الوجه الصغير توقف قليلا، وتحدث قليلا معهما كان احساسا قويا لا مثيل له كأنها توصيهما الآن بالصغيرة التي نامت منذ قليل بعد أن سألت عن جدتها، مر الوجه سريعا أمام الكاميرا، فشعر المهجران، بفاجعة هجرة ثانية مقبلة، الآن، أو تواً.

كانت هناك غرفة صغيرة، في بيت وحيد، بيت في شارع مظلم وهادىء، وزوجان يزاحمهما بكاء ويضج صراخ، وينزاح هدوء جميل، كما ينزاح ظل، والسيارات الكبيرة ما تزال تفرغ حمولتها، وتمرق آلاف الوجوه امام كاميرا المصور الانكليـزي في الشريط الحزين.

عدن ـ ١٩٨٠/٥/١٧ م

البيكاجي



■ البيكاجي[1]، غالبا ما يسكنه المهاجرون.

وهذه السلالم تؤدي إلى بيوتنا المكتظة دوما، عند مدخله المعتم، يتوقف الشحاذون والمعـوزون، يدورون قليـلا، مرة، مرتين، بانتظار الهابطين، الحالمين، يأتون من سلالمه المعتمـة. يتكىء الكحوليون آخر الليل عنـد درجاتـه المرتفعـة، يبكون قليلا، أو يغنون قليـلا، يتذكـرون عند عتبتـه اشياء كثيـرة، الشجيرات وحيدات في البيوت، والامهات وحيدات بلا ابناء، والحبيبات يبكين عند الجيران، والكحوليون يأتون ليـلا، بعد منتصف الليل، أو آخره، يغادرون مدخله المعتم صاعدين أو هابطين، يمسكون شيئا من الحزن أو قبضة من الراحة، يسخر من عتبته الصبية ومخزنو القات وباعة القواقع البحرية، ويقصده المهاجرون مساء، صباحاً، وهم يحملون لحوم الماعز وأسمـاك

---

(١) البيكاجي : مبنى في عدن.

البحر، والبصل. كانت درجاته المؤدية الى الطابق الثاني من حجر الجرانيت، مستطيلة بعض الشيء، ليست سميكة كما ينبغي، لكنها رغم ذلك غالباً ماتؤدي إلى الطابق الثاني، غرفاتنا المبعثرات، حيث يسكن المهاجرون.

البيكاجي غالبا ما يسكنه المهاجرون.

كان يسكنه الفلسطينيون، يهبطون أو يصعدون درجاته الخمسين، درجات الجرانيت، يحملون لحوم الماعز واسماك البحر والبصل، يبتسمون قليلا، ويتحدثون كثيراً عن الطقس وحالة الحرب. غالبا ما كان الجدال صاخبا، تضج به الغرفات. لقد رحل الفلسطينيون الآن، لكن البيكاجي لم يخل يوماً من المهاجرين، إنه لمن النادر ان يخلو البيكاجي من سكانه العائدين، الوافدين. قبل ذلك، كان يسكنه البحارة الهنود، يأتون كثيراً، ترسو سفن الصيد، سفن التوابل محملة، وتذهب محملة، وغالباً ما، تنسى السفن بعض بحارتها، فيكون البيكاجي مأوى البحارة المهاجرين بسمناتهم الاستوائية، شاحبين قليلا يأتون آخر الليل، أو أول الليل، أو عند الظهيرة يحملون لحوم الماعز وأسماك البحر والبصل، يصعدون درجاته الخمسين.

لقد سكنه المهاجرون دوماً.

الهنود القاطنون، والاحباش الفارون، والفلسطينيون العائدون، ونحن... ، كنا حشدا من الصبية والفتيان والفتيات، نصعد ونهبط درجاته، راكضين، لاهثين، نحمل لحوم الماعز وأسماك البحر والبصل. وهذا السلم يؤدي دوماً الى

بيوتنا المكتظة بالمهاجرين، كانت شرفاته المتعـددة، تطل عـلى فناءات واسعة، وابنية متناثرة تحيط بها نفايات قناني الكحول وعلب السردين والسكائر، انها لتبدو من فوق، من شرفـات البيكاجي، بيوتاً كالحة، معتمة بعض الشيء. كانت شبابيكه المتقابلة، المغلقة، وأبوابه المتقابلة، المفتوحـة والمغلقة، جـاهزة للنقر والطرق الهادىء أول الصباح، أول الليل، كانت شبابيكه بلا ستائر.

ان لحظة الغداء ، هي لحـظة تحاور الشبـابيك، حيث تصخب الموسيقى، كل شباك ــ بلا ستائر ــ يطلق شيئاً من الموسيقى، يعلو الغناء، مثـلٍ غبار متـطاير، وتمتـزج الاغاني، فيخرج مهاجر من غرفته معاتباً، دون ان يسمعه احد:

ــ الا يمكن ان تسمع الموسيقى بضجيج أقل؟

ثم يدخل غرفته المغلقة خجلا، ويغلق شباكه المفتوح، شباكه الذي بلا ستائر. تصخب الموسيقى وقت الغداء، ووقت العشاءات المتـأخرة، وتـطلق فيـروز صـوتهـا من مسجـلات الكاسيت، فيروز، ووحيدة خليل، والسمفونية الثالثة وحصار ستالينغراد.

في البيكاجي، لا يتقابل المهاجرون الا قليلا، رغم ان الابواب متقابلة، والشبابيك متقابلة، لكن المهاجرين غالباً ما يكونون مغلقين. مثل الابواب، مثل النوافذ، ومع ذلك، كان المبنى يصـدح بموسيقى واغـان شتى في هـذا القيظ، دون ان تتآلف. لم يكن سهلا في البداية، عندما جاء المهاجرون من كل

مكان ان يتآلفوا، كما لم يكن سهلا ان تتآلف هذه الموسيقى المتنوعة وهي تصدح في الغرفات المكتظة، كان يلزم صخباً أقل. وضجة تخفت تدريجيا، في الغرف، أو في الروح المكتظة. مساء، يجتمع المهاجرون في غرفاتهم المغلقة، يأكلون لحوم الماعز وأسماك البحر، ويقابلون بعضهم سهوا، بابتسامات عابرة، يحدث ان يزور بعضهم البعض، لكنهم غالبا ما يفعلون ذلك طلبا لقطعة سكر، او كتاب، أو شريط كاسيت.

لم يتغير الوضع كثيرا منذ وقت طويل.

فالبيكاجي، يغادره البعض إلى أمكنة أخرى دون ان يتركوا شيئاً للذكرى، كلمة، او ثوبا، ويأتيه آخرون، مؤقتاً، وربما دائماً. يستريح المسافرون في غرفاته المكتظة، ويسافر منه المهاجرون. ان هذا يحدث برتابة منذ وقت طويل. فمساء كل جمعة يأتي المهاجرون، فرادى أو مجموعات، فتغدو البيوت اكثر ازدحاماً في الطابق الثاني.

لم يتغير الوضع كثيراً منذ وقت طويل، فما زالت جدران العازبين، تضيق بالملابس والسراويل والثياب المتسخة، يبعث مشهدها على الضحك، كأنها وهي معلقة بالمسامير، تبدو مثل مهاجرين علقوا عند الجدران. منذ أول الليل، آخر الليل، تطلق الضحكات والشتائم، مزاح عازبين ومطلقين، ومهاجرين دون زوجات أو ابناء، وآخر الليل تطفأ الاضواء في الغرف. لكن غرفتين وحيدتين، متقابلتين قليلا، كانتا تظلان مضاءتين.

غرفتان مضاءتان، تتقابلان قليلا، نوافذهما مغلقة، واحدة

بستائر. عند اليمين، تسكنها فتيات باكيات، مهاجرات بلا أزواج أو أبناء، والاخرى يسكنها العازبون والمتزوجون الذين أضحوا اليوم بلا زوجات أو أبناء. غرفتان تتقابلان قليلا. ينام سكانها نادمين بعض الشيء، مقهورين بعض الشيء، ويحلمون كثيراً: ان الزوجات والازواج، الابناء والبنات، قادمون عبر البحر، بالطائرات أو المراكب أو السفن. لكن السفن غالباً ما تحمل الاسماك البحرية، تأتي محملة، وتذهب محملة دون ركاب أو مسافرين.

شيئا فشيئا ، بدأ المهاجرون يفتحون نوافذهم.

هدأت الموسيقى وقت الغداء، ولم يخرج المهاجر من غرفته معاتباً، بل ضاحكاً، فلقد حدث شيء ما غير الوضع. حدث ذلك فجأة. عندما هتف أحد المهاجرين: ــ البريد! جاءنا البريد!

كان حامل البريد الخجول. يخفي رسائله، يسأل عن كثيرين، ربما لم يعودوا موجودين في البيكاجي. . لكنه قال:

ــ هذه لك. .

الفتيات خرجن من الغرف. والمهاجرون وعائلاتهم خرجوا إلى الفناء، واستداروا جميعا. مرتبكين، خجولين، متسائلين، يحدقون في حامل البريد واصابعه وهي تعد الرسائل، وتفرزها، لقد خرج الجميع الآن من كل الغرف:

ــ هذه لك. انظري انها من طهران!

لقد حدث ذلك ببساطة، هتف الآخرون:

ــ تعالوا . . انظروا الرسائل . ربما تجدون لكم رسائل!

اجتمعوا مرة واحدة، خرجوا من غرفهم، بملابس النوم والسراويل المتسخة والوجوه التي لفحها القيظ، كانوا مرتبكين، ومسرورين بعض الشيء .

شيئاً ، فشيئاً ، كانت الموسيقى تخفت عند الظهيرة، وقت الغداء، حيث تفوح رائحة اسماك البحر، وشيئاً، فشيئاً، كانت النوافذ والابواب المغلقة، تفتح، وتستقبل الزائرين المتسائلين، منذ جاءنا حامل البريد .

تغير الوضع كثيرا، وأصبحنا نسأل بعضنا كثيراً:

ــ ها . . ما الاخبار؟

ــ انهم بخير . . يسألون عنا بخوف .

فجأة، فرت امرأة من غرفتها، مثل طائر، كانت في ثياب البيت . ركضت، مبتسمة، تكتم فرحة ما . كانت تهمس لاهثة، تفر مثل طائر اربكه المطر . تهمس، لكن لا أحد يسمع همسها .

ــ رسالة طهران . . قالت .

ــ ما بها . . . قال المهاجرون .

كتمت فرحتها، فتبعتها فتاة أخرى، تركض خلفها لاهثة .

ــ اهدئي . . اهدئي قليلا .

كانت تجهش بالبكاء، تضع وجهها بين يديها، وتهرول نحو سياج الطابق، أطلت باكية على الشارع، كان يضج مثلها . أصوات عربات، وباعة، ومهرولون باحثون عن شيء ما .

كانت الرسالة بين يديها، طوتها باكية، ثم دخلت غرفتها .

لقد أصبح الامر واضحاً الآن، كنا نصعد أو نهبط درجات البيكاجي، حاملين لحوم الماعز واسماك البحر، نحلم، أو ننتظر رسالة مثل تلك التي جعلت المرأة تفر من غرفتها، باكية، فرحة.

ـ ٢ ـ

■ كانوا دون ريب، يفكرون بأمر ما. أن يكونوا قريبين الى بعضهم، هكذا قريبين تماما، كي يكون العيش محتملا. أن يخرجوا قليلا من الغرف ـ الزنزانات، الغرف المغلقة التي ينام فيها العازبون المنتظرون. لكن صورة العائلة لاي منهم، لم تكن قد اكتملت بعد. كانت صورة ناقصة، فثمة أب، دون طفل أو زوجة، وثمة زوجة دون طفل أو زوج. وكان هم الصورة العائلية الناقصة يبعث على الحزن. فلقد كانت الهجرة، جلاءا تم بسرعة وخوف وارتباك. ذلك امر يحدث دائماً.

يسهر المهاجرون ـ المهجرون حتى آخر الليل، يقلبون مؤشر المذياع، ويستمعون الى آخر نشرات الاخبار، يبحثون عن اذاعات تبث من الاقاصي، يتساءلون عن الاوبئة الجديدة ويناقشون عسف الانظمة، ويذكر بعضهم بعضا بالمطاردات وحالات الاختفاء والتعذيب والاغتصاب. كل ليلة تتجمع لديهم آخر الليل، حفنة من الذكريات، يتبادلونها دائماً:

ـ أخذوا أبي رهينة.

ـ أي! وماذا فعلت؟

ويصمت المتحدث، ومن حوله يتطلع المهاجرون ـ المهجرون الشبان.

ـ كانوا قد اعدوا لي الجواز المزور. وفكرت، لو أنهم أبقوا أبي رهينة، فكم يدوم الامر؟ كان لزاماً علي أن أغادر.

ـ لكن، لو تعرف كيف هاجم بيتنا المسلحون؟ ينهض آخر قائلاً.. ويضيف:

ـ لقد تسلقوا الجدران، جدران بيوت الجيران، وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ثم هبطوا الى أسفل باحذيتهم وجزماتهم. لقد أحدث ذلك دوياً في فناء البيت، يشبه سقوط حجر ضخم، أيقظوا أبي بفوهات البنادق، ثم فتشوا الغرف. لقد يئسوا. نعم! يئسوا! فقد كنت أعبر تركيا بجواز سفر مزور!

تلك الليلة.. كانوا ساهرين، فناموا متعبين فوق الارائك التي تهرأت شراشفها الزرقاء. يفكرون بحامل البريد، متى يأتي البريد؟ لماذا لاتكتب الزوجات الرسائل؟

في الثانية بعد منتصف الليل نام المهاجرون ـ المهجرون. وفي الثالثة ايقظهم طرق عند الباب. فزوا من نومهم مرتبكين. لكن صوتاً أليفا كان يهمس مهدئا.

ـ استقبلوا ضيوفكم.!

لقد اعتادوا أن يستقبلوا مهاجرين ـ مهجرين جدداً، برغم غرفهم المكتظة. احتشد الضيوف عند الباب، ادخلوا حقائبهم، وصافحوا بعضهم.. انها المرّة الاولى التي يشاهدون

فيها بعضهم البعض. ثم ناموا متعبين فوق الارائك التي تخلى عنها العازبون. في السابعة، كان المهاجرون يذهبون الى العمل يمرون عند شباك غرفة العازبين، يتطلعون من وراء الاسلاك المتشابكة الى النائمين.. فيقول بعضهم بنبرة اشفاق.

ــ أوه! لقد ازداد عددهم كثيرا!

وعند الظهيرة، وقت الغداء، يترك المهاجرون جميعا، غرفهم، يذهبون الى غرفة العازبين:

ــ اهلا.. هل من أخبار؟

يحدث أن يسر بعضهم، بأنباء جديدة، ويحدث أن يكتفي بعضهم بكلام مقتضب كان المهاجرون يعاملونهم بلطف: انهم جديدون على الغربة! وعندما يترك المهاجرون غرفة العازبين. يغلقون خلفهم الباب، وهم يهمسون بنبرة أشفاق:

ــ أوه.. لقد ازداد عددهم كثيراً!!

ــ ٣ ــ

ــ لقد جاء مهاجرون جدد!

هتفنا ونحن نستقبلهم بالاحضان ونحمل حقائبهم. لكن احدهم استدرك:

ــ لسنا جددا.. بل قدامى مثلكم.!!

ــ حسنا. ما الذي حدث؟

انزلنا حقائبهم، واعددنا لهم طعام العشاء، فتحدثوا لنا وهم يضحكون دون ان يبدو ذلك الحزن البالغ، واضحاً في عيونهم الضاحكة. أوجز احدهم الامر هكذا:

كانوا خمسة من المهاجرين، ثلاثة معلمين وعامل، وطالب هجر الجامعة، يسكنون في شقة صغيرة، غرفتان ضيقتان ومطبخ وسخ، جاءهم من يطلب شيئاً:

ـ أخلوا الشقة.. جاءتنا عائلات جديدة!

استعدوا على عجل لاخلاء المكان، كانوا يجهدون كثيراً، كي لاتظل رائحة سكن العازبين. نظفوا المطبخ، وغسلوا أرضية الغرفات، ومسحوا الغبار عن زجاجات النوافذ، والستائر، وغسلوا الشراشف، وصفوا الاسرة حتى انتظمت. انهم يشعرون الآن بالراحة. لقد انتهت فوضى العازبين. الكتب المبعثرة. أشرطة الكاسيت. الاواني المتسخة، الملابس المعلقة والمكدسة، الحقائب. انهم يريدون لعائلات المهاجرين ان تسكن في هذه الشقة دون أن يشموا رائحة العازبين، أو أن يكتشفوا من كان يسكنها. كانوا يعملون بهمة. رموا النفايات، رتبوا الموائد والاسرة، هتف احدهم:

ـ انظروا. يا لها من شقة جميلة. هل كنا نسكن هنا! يا إلهي! لكم يبدو ذلك صعبا، من يصدق ان هذه الشقة كانت شقتنا! إنها جديدة!

كانوا ما يزالون منهمكين بعملهم عندما، جاءت عائلات المهاجرين. ثلاث عائلات لغرفتين. كانوا عند الباب عندما قال أحدهم:

ـ هيا.. بسرعة.. لقد جاءوا.

كان العازبون خجلين، فرحين. دون ان يعرفوا سبباً لكل ذلك. لكن:

حدث أمر لايمكن [illegible]يقه.

دخل المهاجرون، وأدخلوا معهم حقائبهم، ثم تزاحموا، وتسابقوا دون أن يبدو ذلك واضحاً في سلوكهم، كان كل واحد منهم يريد مكاناً أفضل. كانـوا وهم يمنهمكون في التـزاحم، لايشعرون مطلقاً بوجود العازبين المنشغلين بالتنظيف. ثم اخرج المهاجرون حقائب العازبين وهم مذهولون.

ـ انتهى كل شيء الآن!

قال احدهم:

فعقب احد العازبـين مع نفسـه: حقا لقـد انتهى كل شيء. ها هم يستقرون بدلا منا.

قال آخر هامسا:

ـ انهم جدد.. سوف يشعرون قريبا معنى ان لايهملوا احدا!

* *

البيكاجي، غالباً ما يسكنه المهاجرون.

وهذه السلالم، تؤدي الى بيوتنا المكتظة دوماً، عند مدخله المعتم يتـوقف الشحاذون والمعـوزون، يدورون قليـلا، مـرة، مرتين، بانتظار الهابطين الحالمين، يأتون من سـلالمه المعتمـة. يصعدون سلالمـه المعتمة حـاملين لحوم المـاعز وأسمـاك البحر والبصل.

عدن ٢٣/١/١٩٨٠

طفل القيامة الذي صار قرطاً ذهبياً

عندما شاخ مبكراً، عطية الشيخ حماد، اكبر حكماء مدينة بادس سناً، لم يترك له ابناؤه المتزوجون تباعاً، سوى سرير متسخ وغرفة من الطين وزريبة دون ابقار، وخمسة وثلاثين ديناراً، وقرطاً من الذهب الخالص، إبتاعه الأبن الأصغر، الذي بمجيئه كفت الأم عن الانجاب تماماً.

كان القرط بنقوشه الريفية الزاهية، مضحكاً ومثيراً للاعجاب، ابتاعه الابن الاصغر اثناء رحلة الهور الشهيرة، تلك الرحلة العجيبة التي قطع بها مئات الكيلو مترات بين الاهوار بحثاً عن اعمامه واخواله.

اولئك الأخوال والاعمام، الذين ألّفوا فيما مضى حشداً من الصيادين الذين توغلوا بعيداً في اعماق الاهوار، حتى كادت صلة القربى بهم تتفتت، فأرسل عطية الشيخ حماد، ابنه الاصغر، بعد مشاورات ومداولات سريعة يخبرهم بتأسيس صندوق مالي مشترك لأعالة يتامى القبيلة ودفع فدية المشاجرات

الدموية والتكفل بدفن الموتى وإجراء المراسم اللازمة وإقامة المآتم.

وبعد انتظار طويل، دام أشهراً معدودة، تزوج خلالها الابناء تباعاً، تاركين عطية الشيخ حماد، بانتظار سفيره إلى الأهوار، واخباره عن صلة القربى، والصندوق المالّي، فلما يئسوا من عودته اشاعوا أنه لقي من يرحب به من ابناء عمه، فاكرمه قارباً وعلمه صيد اسماك النهر. ولكن الانباء سرعان ما جاءت مفجعة، وعاصفة.

فذات مساء، جاء ا لبهلول الذي طاف المدن ببضائعه الغربية وحماره الصغير، وسلم عطية الشيخ حماد، قرطاً وبضعة كلمات تعازي مرتبكة، فلقد قتل الفتى في رحلة الهور الشهيرة. وبعد ايام جاء من يسلم عطية الشيخ حماد رسالة عاجلة من حشد الصيادين الذين توغلوا عميقاً في الاهوار، فسرد عليه قصة مقتل الفتى.

ففي رحلته تلك، حيث وصل الفتى إلى بيوت اعمامه واخواله، الطافية فوق الماء، رحب به ابناء النسب المقطوع، واقاموا لاجله الولائم واخذوه في رحلات صيد وسمر لا عد لها.

وذات يوم لمح الفتى قرطاً ذهبياً في ا ذن غجرية كانت ترقص في عرس ابن خاله، فساومها طويلاً، وطاردها وتوسل إليها، حتى تمددت إلى جواره عارية، في كوخ معطر بالاعشاب والاسماك في اعمق نقطة في الهور، فتذكر وهو يتحسس جسدها، انه لم ينم منذ ثلاثة ايام، فاسترخى مستسلمًا لرعشة

الجسد، محدقاً بعينيها الخضراوين وقرطها الذهبي.

في الصباح، وجدوا الفتى مقتولاً وقرط الذهب في اذنه.

فركب ابناء عمه قواربهم، وجابوا الأهوار، والبيوت، بحثاً عن غجرية لم يتعرفوا على ملامحها، حتى يئسوا، فاحرقوا الاعشاب والاسماك اليابسة لتطرد الشيطان الذي خبأها، ثم طلبوا البهلول على عجل وسلموه القرط وبضعة اخبار عن مقتل الفتى.

لقد ظل القرط سنوات طويلة، محفوظاً في صندوق من الخشب، ملفوف بقطعة قماش خضراء جلبها عطية الشيخ حماد، يوم بلغ الستين من عمره، من مرقد الأمام، وكانت العجوز، أم الفتى، تفتح كل صباح، صندوقها الخشب وتخبر القرط برحيل الفتية الابناء واحداً إثر آخر. فظن الجميع أن العجوز قد جنت، غير انها الوحيدة التي كانت تعلم ان بوسع القرط ان يسمع، إذ قالت لها عرفة من عرافات بادس المسنات، إن وليدها الذي ذاق طعم الجسد الغجري هائمًا في رحلة الهور، هو قتيل حبيب إلى نفس الله، فصيره قرطاً ذهبياً ستلبسه يوم القيامة حيث ستغدو عروساً وتمشي في موكب المعزّين والمنشدين والمصلين والحجاج والهائمين في جوق من المتعبدين الصاعدين إلى الله.

وقبل أن تنشب الحرب التي لم تنته بعد.

فاجأ السل، عطية الشيخ حماد، وكان قد بلغ الحادية والستين، وبحكمة مبهمة، قرر اعتبار الاصابة سراً سيحمله الى

القبر، ليدفن معه، فلو أن ابناء القبيلة علموا بالأمر لجردوه مما تبقى له من الزعامة والحكمة، ولانتزعوا منه حق البقاء في ركنه الأليف هذا، كأكبر حكماء بادس سناً، ولظل وحيداً ينشد الراحة الابدية التي لن تأتي، ولكان عليه أن يفكر بطريقة ما لأنفاق دنانيره الخمسة والثلاثين واصلاح زريبته التي لم تر الابقار منذ الفيضان.

■ ■

آنذاك ، اخذتني أمي لزيارة عطية الشيخ حماد، وكان قد اصبح عارفاً بطب الاعشاب، وتطبيب الاطفال المرضى الذين تسكنهم الجان والشياطين، فظللت طوال الصيف في منزله، بين اعشابه وعقاقيره الغريبة ومرض السل.

كنت اختلس النظر إليه كثيراً، وقت القيلولة . . . ، عندما يتركني قائلاً:

ـ كل هذا يكفي اليوم، خذ النقود من امك عندما تأتي واشتر الكزبرة.

فاكتشفت ذات يوم، وكان قد ابلغ امي، انني شفيت تماماً، انه كان يتعرى كل يوم في الزريبة، حيث تتبعه العجوز، هامساً لها بسر من اسرار القرط، وواعداً إياها بلبسه، لكنه سرعان ما يخبرها، انه عازم على السماح لها بلبسه يوم الحشر فقط عندما يكونان سوية فوق الصراط، يعبران بخفة الطائر ويقين الملائكة والأولياء فأنصرف خيالي الى تصور غريب: كيف تلبس الام طفلها. .؟ وبماذا سيخبرها عن الغجرية التي ذبحته

فوق عباءتها في كوخ معطر بالاعشاب والاسماك في الهور يوم ذهب يبحث عن اعمامه واخواله.

لقد سررت لمخيلتي وهي تضع لي قرطاً ذهبياً ضاحكاً أو حزيناً.

كنت اراقبهما من فجوة جانبية في الزريبة، فرأيتهما طوال الصيف نائمين، كطفلين عاريين، بنقيع الماء والعرق والسعال ولفحة الهواء العابرة والسل.

لقد علمت أخيراً، انهما مصابان بالسل منذ سنوات وان الاعشاب الرحيمة هي وحدها، التي ابقتهما كل هذا الوقت احياء.

كل ذلك عرفته من همسات العجوزين في الزريبة. كان ذلك مفجعاً، برغم انني لم أكن أعرف ماذا يعني كل هذا، وشعرت بالحزن من هذا الصيف، الذي أمضيته كله في بيت عطية الشيخ حماد، الذي كان زعيمًا لقبيلتنا، لكنه لم يمسك من الزعامة شيئاً، بل ان امي تعده من افقز زعماء القبائل واكثرهم حماقة، وهو الوحيد الذي اشترى له ابناء القبيلة ثوباً نظيفاً يوم قتل حمدان بن مسيرّ، واجتمع الحكماء في بيتنا لطلب العطوة من اهله، والتفاوض معهم لئلا تنشب الحرب.

■ ■

وفي صباح الأول من ايلول، حيث تبقى لمجيء امي كي تأخذني، بعدما أعلمها بشفائي، يومان فقط، رأيت مسنات

بادس اللواتي يستيقظن منذ الفجر، وهن يراقبن من السطوح الواطئة، العجوزين العاريين في الزريبة وكن يشهقن بتهكم:

ـ انهما في الزريبة منذ ظهيرة أمس يصنعان طفلاً!

وفي الشتاء التالي.

عندما عدت إلى بيتي، وكنت قد اصبحت معافى بفضل اعشاب عطية الشيخ حماد الرحيمة، سمعت أمي تسرد على ابي باكية، حدوث المعجزة، إذ جاء خبر غريب إلى أمي، ان بطن العجوز قد انتفخ منذ ذلك الصباح الذي رأيت فيه مسنات بادس وهن يراقبن من السطوح في الغبش البارد، العجوزين العاريين في الزريبة، وإن الاعشاب لم تنفع، فوضعت طفلاً جميلاً.

ولأن احداً لا يصدق ـ تماماً مثلما لا تصدقون الآن ـ فقد اجتمع حكماء بادس في بيتنا ذات مساء، وكانت امي تعد الشاي وهي تولول وتعدّد اسماء الشامتين والشامتات وتلعن الشماتة وابناء عطية الذين رحلوا مسرعين تباعاً، تاركين دنانيرهم المتسخة وزريبتهم القذرة وبيتهم الطيني الذي ما هده الله بعد بعاصفة او فيضان.

لقد اجتمع حكماء بادس في بيتنا، واذاعوا ـ ذلك المساء ـ باصواتهم المبحوحة والخشنة وهم يرتشفون الشاي، إن ما حصل هو برهان من الله على ان القيامة قادمة لامحال

ولكن القيامة لم تقم منذ ذلك اليوم.

ومنذ أن رأى الطفل بعينيه الخضراوين، ضوء الصباح

الساطع في البيت الطيني، كان عجوزا بادس، جثتين هامدتين فوق حصيرة ممزقة. لقد ماتا متعانقين، كطفلين عاريين موعودين بالزفاف ورحلة الصراط وقيام الساعة. كان ذلك بعد ثلاثة ايام من مجيء الطفل حيث كنا ما نزال نترقب حدوث القيامة

■ ■

هرعت أمي إلى بيت عطية الشيخ حماد باكية، فلقد قرروا تجريده من الزعامة والحكمة وهو ميت، فبكت مع النساء، وطبخت مع الطباخين غداء المأتم، وكان أبي يشرب القهوة في خيمة المعزين، وكان الدخان يملأ البيت.

كان على أبي ان ينفذ قرار حكماء بادس: ان يدفن عطية الشيخ حماد ويدفع للدفان ونجار التابوت وصاحب البغل الذي يحمل النعش ويشتري القهوة للمعزين والرز والفاصوليا لغداء المأتم ويسدد اية نفقات أخرى من مبلغ الخمسة والثلاثين ديناراً التي تركها ابناؤه له يوم رحلوا جميعاً.

لكم اصبح ذلك البيت الذي امضيت فيه الصيف كله، غريباً، وباعثاً للحزن والرهبة.

منذ الصيف، وأنا اتأمل بدهشة، غرفة الطين التي فتحت كوتها عنوة، وملأت بالاعشاب، وزريبة الابقار التي دون ابقار، وذلك الفراغ الشاسع المشبع بالهدوء ورائحة العقاقير. ها هو البيت الذي امضيت الصيف القائظ، اللافح، فيه، وقد اضحى ساحة للبكاء والدخان

بعد ثلاثة ايام من المأتم

عدنا ومعنا طفل القيامة المنتظرة. وإذ قرر حكماء بادس إن الطفل من مسؤولية امي لصلة القربى التي تربطها بتلك العجوز التي انتفخ بطنها في الصيف، ولم تنفع معها الاعشاب، فانجبت في الشتاء طفلاً جميلاً.

■

لقد صار طفل القيامة أخي.

انتظرت معه طويلاً، حدوث القيامة التي وعدنا بها حكماء بادس، وكنت مسروراً به.

كانت النبوءة التي سمعناها ليلة اجتمعوا في بيتنا، قاسية ومريرة، ولكنها نبوءة عذبة ومخلصة برغم ذلك، فشيء ما سيحدث يبدل كل هذا.

وقبل ان تنشب الحرب التي لم تنته بعد، اخبرنا طفل القيامة، أخي، ذات مساء شاحب، أنه سيذهب الى الهور بحثاً عن اخواله واعمامه، الذين قيل له، انهم يؤلفون حشداً لاينقطع تناسله من صيادي اسماك النهر، ولكنهم توغلوا عميقاً في الأهوار، عميقاً، عميقاً، ولابد من اخبارهم إن الصندوق المالي قد تأسس فعلاً، فتعالوا ايها الصيادون البَربّرْ، وكونوا قريبن منا، لصيقين بنا.

ذلك المساء، اخبرنا طفل القيامة، اخي، برحلته المنتظرة، فحذرته امي من الغجرية التي ستسحره بقرطها الذهبي وبعينيها الخضراوين.

اعدت له امي، كيساً خاطته بيديها، وملأته بثلاث بيضات سلقتها على عجل، وبارتباك، وقطعة خبز كبيرة ساخنة، انتزعتها أمي من تنور جارتنا، واضافت لها، قطعاً صغيرة من الطماطم والريحان والملح والتمر، وتفاحة ذابلة اشترتها منذ يومين.

قبله أبي، وبكى، وودعه ابناء القبيلة بدموعهم ووضعنا طعامه، وملابسه في الكيس، ورأيت امي تخبىء القرط الذهبي ـ الذي اخرجته من صندوق العجوز يوم ماتت ـ في قطعة قماش ملفوفة مع دعاء كتبه ملا جواد، ثم وضعت القرط الذهبي في الكيس.

امضينا المساء كله، باكين.

لقد ذهب طفل القيامة، التي لم تقم حتى الآن، وفي الصباح، رأيت قرطاً ذهبياً في اذن امي!

دمشق ١٩٨١/٧/١

الغيلم والصبي

■ ذلك المساء الشاحب، قبيل الغروب بقليل، جاء الحكماء الطاعنون في السن أو الموت، إلى بيتنا، وهم يمسحون عيونهم الدامعة، بمناديل متسخة.

إحتسوا الشاي، ودخنوا من «غرشة» أبي تبغاً حاراً، معطراً بالأعشاب اليابسة، الداكنة اللون، وكانوا ينشجون بحزن.

كنت ما أزال (آنذاك) ــ وأنا الآن اتذكر ذلك المساء الشاحب، قبيل الغروب بقليل ــ صبياً امضى نصف عمره الشقي مرهقاً بالبلهارزيا وعيون الصبيات الداعرات اللواتي يهرعن لجنود المعسكرات الانكليزية كل مساء، (الصبيات الداعرات، المستحمات عاريات في النهار). فرأيت ــ بما يشبه الحلم ــ ذلك الضابط الذي لمعت النجوم فوق كتفيه، وهو يتوسط المسنين، الذين استقبلوه فرحين، فطفرت دموعهم. (لقد خدم الصبي طويلاً عند الانكليز، حتى صار ضابطاً). قال عمي: لقد جاء الضابط متعباً من قرية حدودية، يحيط به

الحكماء المسنون، الـدامعو العيـون، الحكماء الـذين يبدون لي (آنذاك) كالندابات اللابسات الحداد حتى يوم القيامة.

وعندما أذنوا لأبي بالحديث، سمعته يبدأ حكايته ــ كما في كل مرة ــ (يوم عقدنا الراية لعطية الشيخ حماد.. ألا تذكرون ذلك؟) كانت قصة طويلة، طـويلة، وشاقـة لم يعد بـوسعي تذكرها.

دنوت من الضابط، القادم من القرية الحدودية، فلمحت في عينيه الداعرتين الرائعتين، شيئاً ما يشبه السحر، فأخرج من جيب بذلته الكاكية، غيلمًا من السكر والأصباغ، غيلمًا جميلاً، فمضغته على عجل. كان ذا طعم حاد ولاذع وبمذاق كريه.

ضحك المسنون، وقالوا لأبي:
ــ لا تخف انه يبتلع الغيالم!

□ □

قبيل الغروب بقليل، في المساء الشاحب، جاء الحكماء الطاعنون في السن أو الموت (كان ذلك في الأول من شباط يوم بدأت الأمطار تكف عن المجيء، وقوارب الصيادين ضيعتها الرياح بسكانها، ومات العارف بتطبيب الأطفال بالاعشاب، ورَاح وفد القبيلة للتفاوض مع الحكومة حول قانون المحاصصة). دخلوا بيتنا باكين، فلقد مـات عطيـة الشيخ حـماد، وعقدت الـراية لفالح، الابن الأكبر، الذي هجره قبل موته.

كنت ما أزال أحدق في الضابط الذي جاءنا من قـرية

حدودية يحيط به الحكماء، والنجوم اللامعة فوق كتفيه، ووفد القبيلة، الوفد المثير للضحك: بضعة كهول، بمناديلهم المتسخة، وأصابعهم الملوثة باحبار الأختام، وأوراق الشكاوى، فسمعتهم يطلبون من أبي، أن يصنع لي غيلمًا من طين، لقد بكى أبي كثيراً. كثيراً ذلك الماء، قبيل الغروب بقليل، ذلك أن دوري قد حل تواً، فلقد كنت آخر صبي من بادس اللعينة، يبلغه حكماؤ ها، بوجوب أن يصنع له غيلمه، غيلمه هو، دون سواه. وعندما خرجوا، البسني أبي معطفاً طويلاً، وعصّب رأسي، وتلفع بعباءته، وأخرجني إلى الظلام، إلى الشاطىء.، كان العالم مهجوراً، وهو يدمدم: (ستأتي الأمطار، ستأتي الأمطار وسيرسلون آخر إلى الهور).

كنا عند الشاطىء.

فتأملت الظلام الممتد إلى ما لا نهاية، وفي لساني ما يزال طعم غيلم السكر الذي وهبني إياه الضابط القادم من قرية حدودية في إجازة لن تطول، كان الماء الأزرق، الفضفاض مثل ثوب إمرأة، الماء الأزرق، اليسير، الشفاف، مثل شيء قابل للكسر أو الالتهام يغرق في عتمة ابدية.

والعالم ــ آنذاك ــ يبدو مهجوراً، حيث العتمة والرد، وبضعة قوارب لصيادين ماتوا غرقاً أو كمداً، وكان أبي مشغولاً بصنع غيلم من الطين، طين الشواطىء المظلمة، النائية، والكئيبة.

انحنى أبي فوق رمال الشاطىء، واقتلعت يداه المباركتان

الجميلتان، قطعاً من الطين، فتكورت بين يديه، واستحالت كرة صغيرة، ثم أشكالاً مبهمة.

كنت ما أزال مشغولاً برؤية الماء في ظلام شباط، ومذاق الغيلم المصنوع من السكر، يلذعني، فلم انتبه لما يصنعه أبي، قلت:

ـ من أين يأتي الظلام؟ أبي... أبي؟ قلت من أين يأتي الظلام؟

كان أبي، يبكي، وهو يصنع لي غيلمًا من الطين.
قلت: وإلى أين يمضي النهر في الظلام؟

X X X

قبيل الفجر، كان أبي، ما يزال يصنع غيلمي.

فرأيته في ضوء الصباح الجميل، غيلمًا موحشاً، مخيفاً، باعثاً على الكآبة، ففزعت، وكان أبي ما يزال يبكي.

□ □

عندما عدنا من الشاطىء، رأيت صبية بادس، وقد حملوا معهم غيالمهم. إذن فلكلٍ غيلمه، لقد صنعوها خلسة، في البيوت، أو الزرائب، أو البساتين، خلسة.

لكننا عرفنا بعضنا.

وهكذا، صارت الغيالم الطينية، جزءاً من عالمنا، ننام جنبها، ونأكل معها، وذلك الضابط القادم من قرية حدودية، لم

يعد يأت إلى بيتنا أبداً، محاطاً بالحكماء الطاعنين في السن أو الموت أو الشيخوخة. ولم يعد بوسعي التمتع برؤية نجومه الذهبية اللامعة، أو تذوق غيالمه المصنوعة من السكر والأصباغ.

□ □

ـ هذا غيلمك، صنعته بيدي هاتين، فكن عاقلاً! قال أبي، وأضاف:

ـ لا تمسه بسوء، ولتحفظه مثل الصبيان.

وغادرني في ظلام بادس، إلى المجهول. (قامت الحروب، وهبطت الأمطار، وعاد الصيادون الموتى بقواربهم محملين بالاسماك والعطور والثياب والرايات، فصنعوا لصبيتهم المنتظرين، غيالم من الطين، مثلنا، مثلنا تماماً، واقسموا، مثلنا، مثلنا تماماً، أن صبيتهم لن يزلوا، ولن يرتكبوا الخطايا، ورفعوا أيديهم مثل آبائنا إلى السماء: لتلتهمهم الغيالم الطينية إذا زلوا، أو أخطأوا، أو أمضوا النهار في مداعبة الداعرات العاريات في المعسكرات أو عند الشواطىء).

لكنني كنت أشتهي، أولئك الصبيات ذوات العيون الضاحكة، والأرداف السّمينة، الصبيات الحلوات اللواتي يكشفن لنا عن مؤخراتهن صارخات: لتتركوا غيالمكم إذا كنتم رجالاً حقاً! لترموها في النهر، أو الجحيم!

لكننا أبداً، أبداً، كنا نهرع خائفين، تمزقنا الشهوة ونطفة الذكورة الحية والمعذبة. (ذات يوم ـ قال أبي ـ ستلد امرأة فالح

ولداً جميلاً. فقالت امي، لكنها عاقر، فقال، ستلد في الشتاء صبياً، وسترين! وفي الشتاء، وضعت المرأة ولداً جميلاً، صنعوا له غيلمًا من الطين، بعيون من حبات مسبحة عطية الشيخ حماد، وسمعنا دعاء الساحرات المسنات والعرافات وهن يقلن لفالح:

ــ كن عاقلاً، ولا تمسس شعبك بالسوء ولا تقتل بريئاً، ولا تأو مارقاً، وتجنب حرائق القبائل وحروبها، واستقبل ضيفك بالترحاب والطعام.

لقد جاء ابن العاقر إذن، قالت أمي خائفة، وأوصتني أن أتجنبه، وأن لا أراه، لئلا يصيبني سوء الطالع).

ومنذ ذلك الفجر الذي رأيت فيه صبية بادس وأطفالها؛ وهم يحملون غيالمهم الطينية، صرنا نسمع صرخات الامهات في الزرائب أو الأكواخ، أو عند الشواطىء:

ــ لقد التهم الغيلم صبياً

(فتردد في رؤوسنا أصداء تلك الكلمات المبهمة التي سمعناها ذات يوم: لتأكل رؤوسهم غيالم الطين إن هم زلوا، أو ارتكبوا الخطايا، أو داعبوا الداعرات العاريات عند الشواطىء).

إذن، كانت الغيالم، تلتهم الصبية، واحداً، واحداً، واحداً، إنها غيالمنا التي صنعها الأباء، والحكماء المسنون الطاعنون في الشيخوخة أو الموت، في الشواطىء المظلمة، في النهارات القائظة، في الزرائب الرطبة، وها هي تأتي إلينا لالتهامنا، واحداً، واحداً، واحداً، واحداً والصبيات ذوات

العيون الضاحكة، والأرداف السمينة، يصرخن فينا:

ـ لتتركوا غيالمكم عند الشواطىء. لتذهبوا بها إلى الجحيم.

لكننا أبداً، أبداً، كنا خائفين، وغيالمنا، كانت تتكاثر، وتتناسل، وكنا نزداد شحوباً، وخوفاً.

□ □

كنا عند الشاطىء، حشداً من الصبية، شعباً من المرتعدين هلعاً (كان أبي قال لي: إن رجلاً من بادس، صنع ذات مساء شاحب من شباط، حيث جاء الحكماء المسنون واحتسوا الشاي، ودخنوا تبغاً حاراً من غرشته، تبغ معطر بالأعشاب اليابسة الداكنة اللون، وكانوا يحيطون بالضابط بنجومه اللامعة فوق كتفيه، الضابط القادم من قرية حدودية، ذلك الرجل، ذلك الرجل يا بني، كان عند النهر في الظلام، يصنع لصبيه غيلمًا من طين، بعينين شاحبتين، كان يداعبه، فقال لصبيه: الآن وقد إنتهينا من صنع الغيلم، فماذا ترانا فاعلين؟ آنذاك ـ يقول أبي ـ جاءت الروح الشريرة، وسكنت قلب الغيلم الطيني، وفجأة صار غيلمًا حقيقياً، التهم الصبي.

ـ ماذا حل به قلت

ـ لقد التهمه. قال أبي كنا عند الشاطىء، حشداً من الصبيان، شعباً يحمل غيالمه بين يديه، فسمعنا صراخ الصبيات الداعرات الذاهبات إلى معسكرات الانكليز يكشفن عن مؤخراتهن ويضحكن، الصبيات الذاهبات إلى اللعب والمتعة،

فرمينا غيالمنا إلى الرمال، وكن ينظرن إلينا بترقب، وفضول: يا إلهي، ها هم يرمون غيالمهم. إذن سمعوا صراخنا، وسيأتون الينا لنعلب معاً، لكننا كنا نرمي غيالمنا كي نستبق معها. كنا نركض، والغيالم الطينية تركض (قال أبي، كان الرجل المسكين يداعب صبيه، فقال: يا ولدي ها نحن انتهينا من صنع الغيلم، فماذا ترانا فاعلين؟) كنا نركض، والغيالم تركض، والصبيات يراقبننا بمرح وخيبة أمل، وكن يحلمن بالاستسلام إلى ما يؤنسهن عند الشاطىء، كنا نركض، والغيالم تركض، والشاطىء يمتد بعيداً، وكنا حشداً من الصبيان، تطاردنا غيالمنا الطينية في سباق مداعبات لذيذة وآسرة (قال أبي، . . . فجاءت الروح الشريرة، وسكنت الغيلم الطيني، . . فصارت . . .) كنا نركض عبر الشاطىء، نلوح بأيدينا لصيادين ميتين عائدين للتو حاملين الاسماك والثياب والرايات، والقوارب المثقوبة، نلوح للعاهرات المستحمات عاريات في البرد، كنا نركض، والغيالم تركض خلفنا، غيالم الطين من أيم جاءتنا، من أين جاءتها السيقان، من أين لها أن تركض (هل تركض الغيالم الطينية يا أبي؟ تركض!، . . وعند الشواطىء أيضاً . . ألا تخشى البلل؟ اليست سيقانها طرية وقابلة للكسر؟)

كنا نستبق مع الغيالم، الغيالم التي صارت رؤوسها مدببة، ورائحتها كريهة، مثل رائحة الزنخ أو الأبط أو السمك المجفف أو المزابل، أو رائحة أفواه البقرات، الزنخ، الإبط ـ . الخ فتعثرت، وسقطت، فرأيت غيلمي يسقط، ويتعثر . كنا نركض .

نركض.
والغيالم تركض خلفنا،
فرأينا الفجر، شاحباً، دون أقواس قزح، عند الشاطىء.

لقد إلتهمت الغيالم، الصبية المتسابقين، واحداً، واحداً، واحداً، واحداً واحداً، واحداً، واحداً، وكان غيلمي يسقط، ويتعثر، فهرعت عنه بعيداً، خائفاً، ومرتجفاً.

ومن بعيد، رأيت وسط مذبحة آكلي لحوم الصبية، قارباً عائماً، يحمل الضابط بنجومه اللامعة يلوح لي بغيلم من السكر والاصباغ.

دمشق ٤ / ١١ / ١٩٨١

فهرست

صدر للكاتب

١ - «الشمس في الجهة اليسرى» - مجموعة قصص مشتركة ١٩٧٢ / بغداد

٢ - «ايها البرج يا عذابي» - مجموعة قصص ١٩٧٨ / بغداد

العبور إلى الضفة الأخرى

افترض أن ما يقف خلف انجاز هذه المجموعة القصصية طاقة الحنين لمدن فارقتها. ولكأنني ما زلت مسكوناً بمذاقات ومناخات وشموس وأرواح عديدة، ينتمي بعضها إلى الطفولة أو المراهقة، وبعضها الآخر إلى سنوات الشباب المبكر.

الموضوعات مختلفة، المكان والزمان مختلفان، تعدد في اللهجات والامزجة والطبائع، عادات صغيرة تملأ عالم الغربة، ارتباط، انفصال، نزوح، إعادة تشكيل. وهنا يطفح الحنين مرفوقاً، أحياناً بالندم.

المؤلف